

مكانة الأم في الإسلام وصور من برّ الصعابة رضوان الله عليهم

١. د. فاطمة بنت فالز حسن الشهري^(١)

• مقدمة :

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف أنبياء الله ورسله، وعلى آله وصحبه أولي الألباب والنهي نحمده على هدايته، ونشكره على رعايته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد،،،

قد كان عليه الصلاة والسلام القدوة الطيبة، والأسوة الحسنة، والمثل الأعلى، والإمام الأعظم قال جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١)، والحديث عن هديه عليه الصلاة والسلام مع النساء حديث طويل متشعب، ولا غرو فقد أوضح لأُمته: "النساء شقائق الرجال"، وقد أوصى بهن خيراً حيث قال ﷺ: "إن الله يوصيكم بالنساء خيراً، فإنهن أمهاتكم وبناتكم وخالاتكم..."^(٢).

وكان ممّا أوحى الله به إلى أنبيائه برّ الوالدين والإحسان إليهما؛ وجاء هدي النبي - ﷺ - مفصلاً لذلك، وهذا ما يوضحه تكرار الوصايا ببرّ الوالدين في القرآن الكريم، وعناية النبي - ﷺ - بشأنه في مواظن عديدة. وقد خُصّت الأم بعناية خاصة، ففي الصحيحين أن رجلاً جاء إلى

(*) أستاذ مساعد بجامعة الملك عبد العزيز.

(١) سورة الأحزاب (٢١).

(٢) سيأتي تخريجه إن شاء الله في المبحث الثاني، المطلب الأول. ص ١٦.

النبي - ﷺ - فقال: " يا رسول الله، من أحق الناس بصحبتي قال: أمك، قال ثم أي؟ قال: أمك، قال ثم أي؟ قال أمك، قال ثم أي؟ قال أبوك... " (١)؛ لذا اختير موضوع "مكانة الأم في الإسلام وصور من برّ الصحابة رضوان الله عليهم" لإبراز هديه - ﷺ - في الحفاظ على مكانة المرأة، وإعلاء شأنها كأم.

وسأتناول لمحات عن صفحة مضيئة من صفحات التاريخ الإسلامي في الزمن الأول "زمن الصحابة" الذين تمتلوا لهدى خير الأمة محمد - ﷺ -، فكانوا مشاعل نور يقتدى بهم، وبسيرهم التي سطرها كتب السير.

• غطة البحث:

وسوف يبدأ البحث إن شاء الله بمقدمة متبوعة بثلاثة مباحث وخاتمة، وهي كالتالي:

• البحث الأول: مفهوم البرّ وأهميته:

المطلب الأول: تعريف البرّ في اللغة والاصطلاح:

أولاً: تعريف البرّ في اللغة:

البرُّ مصدر: برَّ، واللفظة مشتقة من (البرّ) وهو الفضاء الواسع من الأرض التي لم يغطّها الماء، فالبرُّ في مقابلة البحر (٢).

وجاء البرّ بمعنى: الخير والفضل، يقال: برَّ الرجل، يبرُّ برّاً، وزان:

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله في المبحث الثاني، المطلب الأول. ص ١٦

(٢) أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان،

ط ١٩٨٧، ١٧/١، وابن دريد، جمهرة اللغة، الوراق ١١/١، ابن منظور، جمال الدين

محمد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١/٣٦٩.

عِلْمٌ يَعْلَمُ عِلْمًا، فَهُوَ بَرٌّ، وَبَارٌّ: أَيُّ صَادِقٌ أَوْ تَقِيٌّ، وَهُوَ خِلَافُ الْفَاجِرِ، وَجَمَعَ الْبَرَّ: أَبْرَارًا، وَجَمَعَ الْبَارَّ: بَرَرَةً، مِثْلُ: كَافَرٌ، وَكَفَرَةٌ. وَبَرَّرْتُ وَالِدِي، أَبْرَرَةً، بَرًّا: أَحْسَنْتُ الطَّاعَةَ إِلَيْهِ، وَرَفَقْتُ بِهِ، وَتَحَرَّيْتُ مُحَابَاهَ، وَتَوَقَّيْتُ مَكَارِهَهُ^(١)، فَالْبَرُّ: هُوَ التَّوَسُّعُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤْا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾^(٢).

وَمِنْ مَعَانِي الْبَرِّ فِي اللُّغَةِ: الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ وَالصَّدَقُ وَالطَّاعَةُ وَالصَّلَاحُ^(٣).

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: "الْبَرُّ بِالْكَسْرِ الْإِحْسَانُ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي بَرِّ الْوَالِدَيْنِ: وَهُوَ فِي حَقِّهِمَا وَحَقِّ الْأَقْرَبِينَ مِنَ الْأَهْلِ ضِدُّ الْعَقُوقِ: وَهُوَ الْإِسَاءَةُ إِلَيْهِمْ وَالتَّضْيِيعُ لِحَقِّهِمْ"^(٤) وَالْبَرُّ: اسْمُ جَامِعٍ لِلْخَيْرِ وَأَصْلُهُ الطَّاعَةُ^(٥)، وَالْبَرُّ: ضِدُّ الْعَقُوقِ^(٦).

(١) الفيومي، المصباح المنير ١٧/١.

(٢) سورة البقرة (١٧٧).

(٣) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة ص ٤٤٤، لسان العرب، لابن منظور ٣٦٩/١.

(٤) ابن الأثير. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ١/ ١١٦، وفضل الله الصمد الجيلاني، توضيح الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل البخاري ط ١٤٠٦، ٤١/١.

(٥) معجم لغة الفقهاء، لمحمد رواس. دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ط ٢، محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٥، ص ٧٣.

(٦) ابن دريد جمهرة اللغة ١١/١، ابن منظور، لسان العرب ٣٦٩/١.

ثانياً: تعريف البر في الاصطلاح:

البر في الإِصْطِلَاح: يطلق في الأغلب على الإحسان بالقول اللين اللطيف الدال على الرفق والمحبة، وتجنب غليظ القول الموجب للنفرة، واقتران ذلك بالشفقة والعطف والتؤد والإحسان بالمال وغيره من الأفعال الصالحات^(١)، فبرّ الوالدين: الإحسان إليهما، وتوفية حقوقهما^(٢) بالقلب، والقول، والفعل تقرباً لله تعالى. قال ابن عباس: يريد البر بهما مع اللطف ولين الجانب، فلا يغلظ لهما في الجواب، ولا يحد النظر إليهما، ولا يرفع صوته عليهما، بل يكون بين يديهما مثل العبد بين يدي السيد تنزلاً لهما^(٣). سئل الحسن عن بر الوالدين فقال: (أن تبذل لهما ما ملكت، وتطيعهما ما لم يكن معصية)^(٤)

المطلب الثاني: منزلة الأم في الشريعة الإسلامية:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(٥).

(١) الهيتمي، الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢ / ٣٨٨.

(٢) بصائر ذوي التمييز الفيروز آبادي ٢ / ٢١١، وانظر المزيد في: صالح بن حميد، عبد الرحمن بن ملوح، مجموعة من العلماء، موسوعة نضرة النعيم، في أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ط ٣، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٢٥ هـ ٧٦٧/٣.

(٣) ذكره الهيتمي، في الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢ / ٣٨٨.

(٤) عبد الرحمن بن علي الحنبلي، ابن الجوزي، في بر الوالدين، ط ١، دار الكتاب العربي، ١٤٢٦ ص ١٣٧.

(٥) سورة لقمان: ١٤.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ" (١).

لم تعرف البشرية ديناً ولا حضارة عنيت بالمرأة أجمل عناية، وأتم رعاية وأكمل اهتمام كتعاليم الإسلام، ولم تعرف أم في التاريخ هذه المكانة العظيمة كما عرفت أمة الإسلام، وأكدت على مكانتها وعظيم منزلتها، وجعلتها مرفوعة الرأس، موفورة الكرامة عالية المكانة مرموقة القدر؛ أبدلها من نزلها عزاً، ومن عبوديتها حرية وكرامة، رفعت من شأنها، وقوت من ضعفها، وجعلت لها في شريعة الإسلام الاعتبار الأسمى والمقام الأعلى، مما جعلها تتمتع بشخصية محترمة ذات حقوق مقررة، و واجبات معتبرة.

بهذه الديباجة الموجزة والمتضمنة لمعانٍ إجمالية مقررة تقريراً قطعياً في شريعة الإسلام فإن هذه المعاني تظهر في صور لا تحصى وجزئيات لا تستقصى، وبعيداً عن الاستغراق الجزئي سنتعرض للمحات من تكريم الإسلام للمرأة "كأم" في ضوء مبادئ عامة، وصور جامعة تبرز لنا مدى أخذ

(١) أخرجه سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط١، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، ١٤٠٤ - ١٩٨٣، ٢٠/٢٧٤. و سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مسند الشاميين، ط١، مؤسسه الرسالة - بيروت ١٤٠٥ - ١٩٨٤، ٢/٢٩٧. وابن عساكر، تاريخ دمشق، ملفات وورد من على ملتقى أهل الحديث، ٦٤/ ١٠١. ورجاله ثقافت إلا أن يحيى بن جابر لم يسمع من المقدام والله أعلم، قال المناوي: رجاله ثقافت ١، فيض التقدير ٥٦٢، قال الألباني: ضعيف. في الجامع الصغير وزياداته ١٣٣/٩، وذكره محمد ناصر الدين الألباني، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض ٧٢/٧.

تشريعات الإسلام بكلّ ما يكفل رفع منزلة المرأة، وإعلاء قدرها، وإعزاز مكانتها؛ ولهذا كله فقد قرر الإسلام تقريراً عاماً لمركز المرأة فيه ومساواتها مع الرجل في مجال الشؤون العامة والخاصة إلا ما دعت الضرورة البشرية والطبيعة الجبلية التفريق فيه، قال صلى الله عليه وسلم: "إنما النساء شقائق الرجال" (١).

ومن يتأمل النصوص الشرعية يجد عناية عظيمة بشأن المرأة، في رعاية حقوقها، وتحذيراً شديداً من ظلمها، والتعدي عليها، فقد أمر الإسلام بالتعامل مع المرأة في حدود الإحسان وفق حدود عظيمة وضوابط قويمة، وحذر من ظلمها أو تعدي حدود الله في التعامل معها، وخصها بمزيد عناية في كونها (أم).

(١) أخرجه، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، ١/١١١، و، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها الترمذي، ١/١٨٩، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدرامي، سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، ط ١ دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٧، الأحاديث مذيلة بأحكام حسين سليم أسد عليه ١/٢١٥، وأحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤ - ١٩٩٤، ١/١٦٨. قال الألباني: حسن إلا قول أم سليم المرأة ترى الخ محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية، ١٩٣/٩.

والمرأة بشكل عام في ظلّ تعاليم الإسلام القويمة وتوجيهاته الحكيمّة تعيش حياةً كريمة في مجتمعها المسلم حياةً ملؤها الحفاوة والتكريم من أول يوم تقدّم فيه في هذه الحياة، وفي كلّ حال حياتها: بنتاً، أو أمّاً، أو أختاً، أو عمّة، أو خالة، أو زوجة، أو حتى أجنبيّة صغيرة أو كبيرة.

ولتجلية هذه المكانة التي حظيت بها المرأة^(١)، "كأم" في الإسلام، تناولت بعضاً من نصوص كتاب الله العزيز، وسنة رسوله عليه السلام، وسيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرام الميامين^(٢) ووسطرتها فيما سيأتي.

أولاً: تكريم الأم في كتاب الله العزيز:

سلك القرآن الكريم أروع الأساليب في التوصية بالأم خيراً، والنصوص في ذلك عديدة تفجّر في النفس ينابيع البرّ والإحسان، وتدفع المرء للإحسان دفعا من أعماق الوجدان، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّنِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾^(٣).

(١) بتصرف انظر: حسين آل الشيخ، المبادئ العامة لمكانة المرأة في الإسلام، ١٤٢٧،

ص ١٣-٥.

(٢) سيأتي تفصيل ذلك في المبحث الثالث إن شاء الله.

(٣) سورة الإسراء، الآية (٢٣). ذكر القرطبي في هذه الآية ستة عشرة مسألة انظر

تفصيل ذلك: تفسير القرطبي ١٠/٢٣٧-٢٤٤.

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِعِبَادَتِهِ وَحَذُّهُ لَ شَرِيكَ لَهُ (وَقَضَى رَبُّكَ - يَعْني أَمَرَ رَبُّكَ وَوَصَّى) وذلك أن أصل الشريعة وقاعدتها توحيد الله تعالى وعبادته، فإذا وضعت القاعدة وأقيم الأساس جاءت التكاليف الفردية والاجتماعية.

والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة هي رابطة الأسرة، ومن ثم يربط السياق برّ الوالدين بعبادة الله تعالى اعلاءً لقيمة هذا البرّ عند الله تعالى^(١)، وإذا أردنا أن نعرف شأن البرّ بالوالدين عند الله تعالى من خلال هذه الآية الكريمة وسواها من آياتي سورتي النساء والأنعام، فلنعرف قيمة عبادة الله تعالى المدلول عليها بقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)، فعبادة الله تعالى هي الحقيقة الكبرى وهي من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيفائها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة، أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها واعصارها، وعبادة الله تعالى هي حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة وهي غاية الوجود الإنساني^(٣). فمن أدرك هذه الحقيقة بقلبه وعقله وآمن موقناً بها، وكانت حركته في حياته وفق مقتضياتها فاز ونجح وسعد في دنياه وأخراه، ومن انحرف عن ذلك وقع في هوة السقوط السحيقة ولقي الخسران والبوار في الدنيا والآخرة^(٤).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ١٣/٥.

(٢) سورة الذاريات (٥٦).

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن ٣٧/٧.

(٤) سليمان صادق البيرة، من معالم الهدى القرآني ص ٥٥ - ٥٦.

يتعجب الإنسان كيف أن الله تعالى لم يقرن شيئاً من العبادات في الإسلام بطاعته كما قرّن طاعة الوالدين، ثم خص الأم بمزيد وصاية ^(١) يقول حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما: "ثلاث آيات مقرونات بثلاث، ولا تقبل واحدة بغير قرينتها .."

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ^(٢) فمن أطاع الله، ولم يطع الرسول لم يقبل منه .

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ^(٣) فمن صلى، ولم يزك لم يقبل منه
 ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ ^(٤) فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه ^(٥).
 ولأجل ذلك تكررت الوصايا بالأم في كتاب الله تعالى والإلزام ببرها والإحسان إليها، والتحذير من عقوقها أو الإساءة إليها، بأي أسلوب كان، قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ^(٦) وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ^(٧).

"وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" قال الرازي: وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين ^(٨).

(١) بتصرف: محمد تهميش بر الوالدين ص ٥.

(٢) سورة التغابن (١٢)

(٣) سورة البقرة (٤٣).

(٤) سورة لقمان (١٤).

(٥) ذكره الهيثمي، في الزواجر في اقتراف الكبائر ٣٩٠/٢.

(٦) سورة النساء (٣٦).

(٧) سورة العنكبوت (٨).

(٨) محمد بن عمر بن فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، موقع التفاسير، الموسوعة الشاملة ٣٢/١٠.

ثم يأخذ السياق في تظليل الجو كله بأرق الظلال، وفي استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة، ومشاعر الحب والعطف والحنان: «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا» والكبر له جلاله، وضعف الكبر له إichaؤه وكلمة «عِنْدَكَ» تصور معنى الالتجاء والاحتماء في حالة الكبر والضعف. قال الرازي معناها: أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر^(١).

وخصّ حالة الكبر؛ لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره؛ لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر ممّا ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلاً عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه، ولهذا خص هذه الحالة بالذكر، وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستئصال للمرء عادة، ويحصل الملل ويكثر الضجر، فيظهر غضبه على والديه، وتتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة النبوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بنفسه المتردد من الضجر، وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب^(٢).

بهذه العبارات الندية، والصور الموحية، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء في حق الأم^(٣).

و جملة ﴿فَلَا تَقُلْ لَهَا أَنتَ لَا تَنْهَرُهَا﴾ هي أول مرتبة من مراتب الرعاية

(١) الرازي، مفاتيح الغيب ٣٤/١٠.

(٢) تفسير القرطبي ٢٤١/١٠، وابن العربي في تفسيره ٢٤٠/٥ - ٢٤١.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن ١٤/٥.

والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب..

قال القرطبي: أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم، وعن أبي رجاء العطاردي قال: "الأف الكلام الفزع الرديء الخفي"، وقال مجاهد: "معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأيته منك في الصغر فلا تقذرهما وتقول أف، والآية أعم من هذا، والأف والتف وسخ الأظفار" (١).

﴿وَقُلْ لِّمَا قَوْلَا كَرِيمًا﴾ وهي مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشي بالإكرام والاحترام.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢).

قال الرازي: والمقصود منه المبالغة في التواضع، وليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما، سئل سفیان: كم يدعو الإنسان لوالديه؟ أفي اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة؟ فقال: نرجو أن نجزئه إذا دعا لهما في أواخر الشهادات (٣).

تواضع لهما، واخفض لهما جناح الذل رحمة وعطفًا وطاعة وحسن أدب، لقد أقبلنا على الكبر، وتقدما نحو العجز والهرم بعد أن صرفا طاقتهم وصحتهم وأموالهم في تربيتك وإصلاحك، قال رجل لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: إن لي أمًا بلغ بها الكبر، وأنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري مطية لها، وأوضئها، وأصرف وجهي عنها.

(١) تفسير القرطبي ١٠/٢٤٢.

(٢) سورة الإسراء (٢٤).

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب ١٠/٣٦.

قال: أليس قد حملتها على ظهري، وحبست نفسي عليها؟ قال: إنها كانت تصنع ذلك بك، وهي تتمنى بقاءك، وأنت تتمنى فراقها^(١).

«جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ» وهنا يشف التعبير ويلطف، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان. فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكانها الذل الذي لا يرفع عينا، ولا يرفض أمرا، وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام. ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ فهي الذكرى الحانية؛ ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الولدان، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان؛ وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع، ورعاية الله أشمل، وجناب الله أرحب. وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

وهكذا تتابعت آيات الكتاب الكريم بالوصية بالوالدين، وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد. فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى. ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة^(٤).

(١) ذكره ابن الجوزي في بر الوالدين ص ١٢٩، وانظر: هجاد، تهميش بر الوالدين

ص ٦١.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ١٤/٥.

(٣) سورة الأحقاف (١٥).

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن ٤١٦/٦.

قال الرازي: دلت الآية على أن حق الأم أعظم، لأنه تعالى قال أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ فذكرهما معاً، ثم خص الأم بالذكر، وذلك يدل على أن حقها أعظم، وأن وصول المشاق إليها بسبب الولد أكثر^(١).

وجاء الإحسان في كتاب الله تعالى مأموراً به الولد أداءً لحق والديه معبراً عنه بالمصدر (إحساناً) دون سواه، وذلك يدل دلالة واضحة على أن الولد مطالب بالإحسان لوالديه في كل حال وزمان؛ إحساناً يتواصل بالليل والنهار، بالسر والجهر، ظاهراً وباطناً، يشمل كل ما يمكن أن يطلق عليه إحسان، ولانهاية لبحر الإحسان، فهو بحر لا ساحل له، واسع بسعة أطرافه، وميادينه، ومجالاته ووسائله، وهو بحر واسع بسعة وعظمة وكبر النفوس التي ملأ الله تعالى جوانبها بالإحسان فأشرقته بهذا الإحسان جمالاً وتألّقاً وبهاءً وفاضت إحساناً إلى مخلوقات الله بعمامة، وإلى ذوي الرحم بخاصة، وإلى الوالدين بسبيل أخص وأعظم^(٢).

وتتابعت الآيات العظام والمعاني الجسام في استئثار مشاعر البر والعرفان، فوصى بالوالدين مراراً، ونوه بفضل الأم تكراراً، وما تكابد من مشاق، ومتاعب في صورة لطيفة حانية، توحى بالبذل النبيل، والحنو المطلق، والانعطاف الرقيق.

وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الهدى الأمثل لذلك البر

(١) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب ٥٢/١٤.

(٢) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب ٥٢/١٤. وابن العربي، في تفسيره ٢٤٢/٥، وابن

عطية، في المحرر الوجيز، ١١٥/٦.

الذي تمثله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثالا فذا فريدا للرحمة الخالصة والبر الجميل المرفه^(١).

وفي سيرة الصحابة الكرام ما يجسد ذلكم البر الذي استقوه نقيا صافي من كتاب الله العزيز ومن بحر هديه الشريف صلى الله عليه وسلم^(٢)، فما أعظمها من مكانة، وما أعزها من منزلة، وما أرفعها من مثوبة.

ثانياً: تكريم الأم في ضوء السنة النبوية الشريفة:

جعلت الأم أحق الناس بعسن الصعبة:

لقد جاء الإسلام ليبني المجتمع الأمثل القائم على المحبة، والتآخي، والتناصح، والصحبة الصالحة، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حفيفاً بغرس تلك البذور في نفوس المسلمين، كما أفاض من هديه العالي الناصح الكريم على أسماع الصحابة - رضوان الله عليهم - ، فقد جاء رجل يسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أحق الناس بالصحبة؟^(٣) فجاء رد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نبراساً يُستهدى به في كمال البرّ والوفاء بتلك الأمّ، وتأصيلاً لمكانة الأم الرفيعة، فما أعظمه من شرف، وما أعزها من منزلة، وما أرفعه من تكريم، فهي الصداقة الأسمى والأطهر والأنقى في حياة البشر، فسبحان المشرّع الحكيم.

وإذا كان الولد مأموراً بصحبة والديه الكافرين الضارين في كفرهما بالمعروف فإن مسؤولية هذه الصحبة تكبر وتعظم حين يكون الوالدان

(١) سيأتي ذكرها إن شاء الله في المبحث الثاني في المطلب الأول منه.

(٢) سيأتي ذكرها إن شاء الله في المبحث الثالث.

(٣) حديث " من أحق الناس بحسن صحبتي قال: أمك..... " سيأتي ص ١٧ .

مسلمين، بل إن الدلالات والمعاني التي ينطوي عليها معنى (الصحة) للوالدين لهما جدرة بأن يتأملها العاقل الحصيف وهو يتعامل مع والديه غير غافل عن ذلك المعنى الكبير الذي يدلّ عليه قول النبي - ﷺ - لذلك الرجل الذي جاءه يبأيه على الهجرة والجهاد^(١).

تقديم برّ الأم على الجهاد في سبيل الله^(٢)؛

قدّم برّ الأم على جميع فروض الكفاية، حتى وإن كان جهاداً في سبيل الله، يُنصر به الدين، وتعلو به الأمة، وجعل النبي - ﷺ - صحة الوالدين جهاداً، قال الطرطوشي: "وأقل درجات الجهاد أن يكون مندوباً، وقدّم - ﷺ - فضل صحبتها على فضل الجهاد، هذا ولم ينقل أنهما منعاه ولا بكياً إشفاقاً عليه، ولا توجب عليه طاعتها. فما الظنّ عند منعها إياه وبكائها^(٣)."

قال الحسن البصري: إذا أذنت له أمه في الجهاد وعلم أنّ هواها أن يجلس، فيجلس. ومن رأى ألا يخرج إلى الغزو إلا بإذن والديه: مالك و الأوزاعي والشافعي والثوري وأحمد وأكثر أهل العلم، هذا كله في حال الاختيار ما لم تقع ضرورة وقوة للعدو، وإذا كان ذلك تعين الفرض على الجميع وزال الاختيار، ووجب الجهاد على الكل^(٤).

قال الجصاص: إنما منعه من الجهاد إلا بإذن الأبوين إذا قام بفرض غيره لما فيه من التعرض للقتل، وفجعة الأبوين به فأما التجارات والتصرف

(١) سليمان البيرة، من معالم الهدى القرآني ص ٩٩-١٠٠.

(٢) حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ووصى به في كثير من المواطن سيأتي ذكرها إن شاء الله في المبحث الثاني في المطلب الأول منه.

(٣) بر الوالدين ص ٧٦.

(٤) شرح ابن بطلال ٢٠٨/٩. وانظر فتح الباري ٣٣٣/٨.

في المباحات التي ليس فيها تعرض للقتل فليس للأبوين منعه منها فلذلك لم يحتج إلى استئذانهما ومن أجل ما أكد الله تعالى من تعظيم حق الأبوين^(١)، وعن الحسن بن عمرو، قال: سمعت بشر بن الحارث يقول: " الولد بالقرب من أمه حيث تسمع أفضل من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله عز وجل، والنظر إليها أفضل من كل شيء"^(٢).

تقديم برّ الأم على النوافل والندب إليه بل وجوبه:

لقد كان من تكريم الإسلام للأم أن قدّم برها على فعل النوافل، بل و تقديم برها على محبوب النفس من مال وأهل.

قال هشام بن حسان: قلت للحسن: إني أتعلم القرآن، وإنّ أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: "تعش العشاء مع أمك تقرّ بها عينها، أحب إلى من حجة تحجها تطوعاً"^(٣).

وكان حيوة بن شريح وهو أحد أئمة المسلمين يقعد في حلقتة يعلم الناس، فتقول له أمه: قم يا حيوة فألق الشعرير للدجاج فيقوم ويترك التعليم^(٤). وما أجمل الفقه في الدين يرتقي بالمرء إلى مراتب عظيمة فلا يقدّم أمراً على آخر.

(١) أحمد بن علي الرازي أبو بكر الجصاص، أحكام القران، تحقيق: محمد الصادق

قمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥، ١٥٦/٣

(٢) ذكره ابن الجوزي، في بر الوالدين ١/١٤١.

(٣) أخرجه أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق السراوي

وآداب السامع، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، ١٤٠٣،

٢/٢٣٤، وابن الجوزي، في بر الوالدين ١/١٤١.

(٤) ذكره ابن الجوزي، في بر الوالدين ١/١٤١.

قال القرطبي: جملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتها في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأمر في الصلاة مع إمكان الإعادة، على أن هذا أقوى من الندب، لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة، فلا يكون أقوى من الندب^(١). وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعه أمه من شهود العشاء شفقة فلا يطعها^(٢).

مراعاة برها حتى وإن كان هناك ظلم وجور:

البر والطاعة والإحسان واجبة على الأولاد ولا يتعلق بها تقديم إحسان أو عدل أو كرم منهما.

عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: "من أصبح مطيعاً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة، وإن واحداً فواحد، ومن أصبح عاصياً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من النار، وإن كان واحداً فواحد؛ قال رجل: وإن ظلماً؟ قال: وإن ظلماً، وإن ظلماً، وإن ظلماً"^(٣).

(١) ذكره عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٨/٣، و القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٦٤/١٤. وابن عطية في المحرر الوجيز ٢٦٨/٥.

(٢) ذكره محمد بن أبي بكر الفهري الطرطوشي، في بر الوالدين، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٦هـ، ص ٣٣، الثعالبي في تفسيره ٢٠٨/٣، و القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٦٤/١٤. عبد الحق بن عطية المحاربي في. المحرر الوجيز، موقع التفاسير، ٢٦٨/٥.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، ط١، دار الصديق ١٤٢١هـ/١٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٠٦/٦ قال الألباني: ضعيف. ضعيف الأدب المفرد ١/١.

أكرمها الله بإجابة دعائها في ولدها :

الدعاء هو العبادة، وهو مظهر القلب الذي يعبر عن الحب والود، وقد أكرم الله الوالدين باستجابة دعائه في ولده، وكلما ازدادت المحبة القلبية المتبادلة بين الوالدين والأبناء ازداد الدعاء، فعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ^(١).

رفعة قلرها بالنهي عن سب غيرها لكي لا يعاد عليها :

إن سب الأم بأي صورة من الصور محرّم، بل يعدّ من أكبر الكبائر^(٢)، فنهي عن سب غيرها لكي لا يعود إليها، والمحافظة على اسم الأم من السب أكبر دليل على البر^(٣)، وعلى طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن بطلال هذا الحديث أصل في سد الذرائع ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل وأن لم يقصد إلى ما يحرم، دليل على عظم حق الأبوين وفيه العمل بالغالب؛ لأن الذي يسب أبا الرجل يجوز أن يسب الآخر أباه ويجوز أن لا يفعل لكن الغالب أن يجيبه^(٤).

(١) أخرجه البخاري في الألبان المفرد ١/١٦٩، قال: الألباني: صحيح، وأبو داود في سننه ٤٨٠/١ قال الألباني: حسن، والترمذي في سننه ٣١٤/٤، قال الألباني: حسن، صحيح الترمذي ١٥٦/٣، وسليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، الدعاء، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٣هـ، ١/٣٩٢، وصحيح ابن حبان ٦/٤١٦.

(٢) ابن بطلال، شرح البخاري ١٧/٢٣٢.

(٣) علي بن نايف الشحود، الخلاصة في أحكام برّ الوالدين، ط١، بهانج - دار المعمور، ماليزيا، ١٤٣٠هـ، ص ٨٣.

(٤) انظر ابن حجر في فتح الباري ١٠/٤٠٤. وانظر: محمد بن صالح العثيمين، القول المفيد، ١/١٦٠.

ولقد سلك القرآن الكريم أبلغ أسلوب في دفع النفس الإنسانية إلى ذلك المرتقى العالي الصعب الذي يهدي النفوس، و يسلك سخيمة النفس البشرية، فحث على المسامحة والتغاضي والصفح والصبر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١)، وهذا ما دعت إليه نصوص الإسلام، وحض عليه هديه العالي القويم: هذا هو خلق المؤمن، تضافرت الآيات الكريمة على تأصيله في نفوسهم، ومن ثم كانت تطلب من المؤمن في مثل هذه المواقف أن يكظم غيظه، ويعفو، ويصفح الصفح الجميل الذي لا يترك وراءه أثراً من حقد أو موجدة أو ضغينة^(٢)، أوسب يمكن أن يعود على نفسه، أو على أعز من أمر الله ببرهم والإحسان إليهم.

قدم برها على بر الأب:

جاءت توجيهات الإسلام تحض على بر الوالدين، وخص بعضها كلا من الأم والأب على انفراد، وأوصت في مجموعها بوجوب البر، ودلت في بعض نصوصها على المقام الأرفع الذي رفع الإسلام إليه الأمومة، وجعلها مقدمة على مقام الأبوة^(٣).

ومن عظيم حقها أن قدم بر الأم على الأب عند التعارض، بعد محاولة التوفيق بينهما.

(١) سورة فصلت (٣٤ - ٣٥).

(٢) محمد علي الهاشمي، شخصية المرأة المسلمة، ط١، دار البشائر، بيروت ١٤١٥ هـ ص ٣٥٤.

(٣) الهاشمي، شخصية المرأة المسلمة ص ١٣٧-١٣٨.

ذهب أهل العلم في هذه المسألة مذهبين، هما:

١- الأب والأم يستويان في البر، وهذا مذهب مالك.

٢- للأم ثلاثة أضعاف البر، وللأب ضعف، وهذا مذهب الليث بن سعد.

استدل من قَدَّم الأم على الأب في البر بحديث: "من أحق الناس بحسن صحابتي"، حيث قال له: "أمك" ثلاثاً، وفي الرابعة قال: "أبوك"، وبغيره^(١). ورد عليهم القائلون بتسوية الوالدين في البر: أن المراد بذلك التأكيد على بر الأم، لتهاون الأبناء في بر أمهاتهم أكثر من تهاونهم في بر آبائهم؛ لأن أمر الأم كله في البيت تحت الستور ولا يطلع عليه الناس، فيجتري الناس على عقوقها أكثر من عقوق الوالد حياء من الناس، وكذا قوته تزجر عن الجرأة عليه، وضعفها يحمل الذنيء على الإساءة إليها، ولا يبعد أن الشريعة بالغت في البر بها أكثر من البر بالأب مواساة لها ومراعاة لضعف قلوب النساء وشفقة على الولد، مع أن الأب ليس أنقص حقاً من حقوقها؛ لأن الأم للين طبعها وضعف بنيتها لا تستطيع أحياناً أن تتحمل إياء وسوء خلقه فتعجل أن تغضب، فتسرع بالدعاء عليه^(٢)، والمذكور في كتب الفقه أن حق الوالد أعظم من حق الوالدة وبرها أوجب^(٣).

(١) انظر: الطحاوي، بيان مشكل الآثار ٤/١٧٥، شرح ابن بطال ١٧/٢٢٧، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٠١٣٧٩/٤٠٥، وعبد الرعوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط ١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٦هـ، ٢/٢٤٧، وتفسير القرطبي ٢/٢٣٩، الشحود، في الخلاصة ص ٧١-٧٢.

(٢) ذكر سليمان الألباني: أن عاطفة المرأة أقوى من عاطفة الرجل، ومن هنا كان حنوها على أولادها وعلى أبوها وإخوانها أكثر من الرجل أو أشد ظهوراً ومن هنا كان إثارة عاطفتها أسرع من إثارة عاطفة الرجل، وكان تأثير عاطفتها أقوى حالاً من تأثير عاطفة الرجل. الألباني، وهبي سليمان غاوي، المرأة المسلمة، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٩٧٥ م، ص ٨٥.

(٣) فضل الله الصمد، في توضيح الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل البخاري، ط ١، ١٤٠٦هـ، ١/٤٤-٤٥.

قال الطحاوي: ثبت بذلك أن الواجب للأم على ولدها من البر وحسن الصحبة ثلاثة أمثال ما للوالد عليه منهما^(١).

قال ابن قتيبة رحمه الله: "خاصمت أم عوف - امرأة أبي الأسود الدؤلي - أبا الأسود إلى زياد في ولد منه، قال أبو الأسود: أنا أحق بالولد منها، حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه؛ فقالت أم عوف: وضعته شهوة، ووضعته كرها، وحملته خفاً، وحملتُ ثقلاً؛ فقال زياد: صدقت، أنت أحق به؛ فدفعه إليها"^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "قال ابن بطال: مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، قال: وكان ذلك لصعوبة الحمل، ثم الوضع، ثم الرضاع، فهذه تتفرد بها الأم، وتشقى بها، ثم تشارك الأب في التربية، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَتَيْنِ﴾ فسوى بينهما في الوصية، وخص الأم بالأمور الثلاثة، قال القرطبي: المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر، وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاومة؛ وقال عياض: وذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل في البر على الأب، وقيل: يكون برهما سواء، ونقله بعضهم عن مالك، والصواب الأول، قلت: إلى الثاني ذهب بعض الشافعية، لكن نقل الحارث المحاسبي الإجماع على تفضيل الأم في البر وفيه نظر^(٣). والمنقول عن مالك ليس صريحاً في ذلك، فقد ذكره ابن بطال، فقال: سئل مالك: طلبني أبي، فمنعني أمي؛ قال: أطع أباك ولا تعصِ

(١) الطحاوي، بيان مشكل الآثار ٤/١٧٥.

(٢) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٢/٢٠٣، وابن بطال في شرحه للصحيح ٢٢٧/١٧.

(٣) ابن بطال، شرح البخاري ١٧/٢٢٧.

أمك؛ قال ابن بطلال: هذا يدل على أنه يرى برهما سواء، كذا قال، وليست الدلالة على ذلك واضحة، قال: وسئل الليث يعني عن هذه المسألة بعينها، فقال: «أطع أمك فإن لها ثلثي البر؛ وهذا يشير إلى الطريق التي لم يتكرر ذكر الأم فيه إلا مرتين^(١)»^(٢). وأشار ابن بطلال: إلى أن الترتيب حيث لا يمكن إيصال البر دفعة واحدة وهو واضح وجاء ما يدل على تقديم الأم في البر مطلقاً^(٣). ومع ذلك كله فقد كان للأب عظيم البر كما تمثله السلف فقد روي عن المأمون قوله: لم أر أبراً من الفضل ابن يحيى البرمكي بأبيه، بلغ من برّه بأبيه وحسن صحبته أن يحيى كان لا يتوضأ إلا بالماء الحار، وكانا في السجن معاً فمنعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فقام الفضل حين أخذ يحيى مضجعه إلى قمقم، كان بالسجن، فملأه بالماء وأنداه من المصباح، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى أصبح، وذلك ليتمكن والده من الوضوء بذلك الماء^(٤).

وروي أن السجان فطن لذلك فعمد إلى إطفاء المصباح في الليلة القابلة، فعمد الفضل إلى القمقم مملوءاً، فأخذه معه في فراشه وألصقه ببطنه حتى أصبح وقد فتر الماء^(٥). فإذا كان هذا بره بالأب فكيف سيكون بر الأم.

تكرار وصية الله ببرها مراراً وتكراراً؛

تتابعت آيات القرآن الكريم، ونصوص السنة النبوية الشريفة بالوصية ببرها والإحسان إليها جاعلة الإحسان إليها رأس الفضائل بعد الإيمان بالله

(١) كحديث المقدم بن معدي كرب الكندي التالي.

(٢) ابن حجر، فتح الباري ١٠/٤٠٥.

(٣) ابن حجر، فتح الباري ١٠/٤٠٢.

(٤) ابن الجوزي، بر الوالدين ص ١٤٤-١٤٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٤-١٤٥.

تعالى، رافعة لمرتبتها مرتبة ما عرفها البشر إلا في هذا الدين، إذ جعلها مرتبة تلي مرتبة الإيمان بالله والعبودية له ^(١). قال الماوردي: فوصاه بالأم ثلاثاً، ووصاه بالأب في الرابعة؛ ولأن الأم لتفرد بها بتقل الحمل، ومشاق الولادة، وقيامها بالرضاعة والتربية - أوجب حقاً من الأب، وأظهر منه عجزاً، فكانت باستحقاق النفقة أحق، وبالتوافر على برها ألزم ^(٢). روى المقدم بن معدي كرب الكندي، عن النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأَبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَأَلْقُرَبِ" ^(٣).

طاعة الأم في الشبهات:

ومن عظيم حق الأم أن قدمت طاعتها في جميع المباحات، بل واختلف العلماء في تقديم طاعتها فيما فيه شبهة، وأن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات، وإن لم تجب في الحرام المحض حتى إذا كانا يتغصان بإنفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما؛ لأن ترك الشبهة ورع ورضا الوالدين حتم، وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل لأنه على التأخير

(١) الهاشمي، شخصية المرأة المسلمة، ص ١٣١.

(٢) أبو الحسن الماوردي، الحاوي الكبير، دار الفكر - بيروت، ١١٠٦/١١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٩١/١، قال الألباني: صحيح، في صحيح الأدب

المفرد ص ٤٤، وصحيح الجامع (١٩٢٤) أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند

الإمام أحمد بن حنبل، م مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، مؤسسة قرطبة -

القاهرة ١٣٢/٤، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن ابن عياش - وهو إسماعيل -

صدوق في روايته عن أهل بلده وهذه منها وباقى رجال الإسناد ثقات،

والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم، ولم يكن في بلدك من يعلمك ذلك^(١).

قال الطرطوشي: فأما طاعتها في الشبهات فواجبة^(٢).

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في (فتاويه): العقوق المحرم كل فعل يتأذى به الوالدان تأذيا ليس بالهين مع كونه ليس من الأفعال الواجبة، قال: وربما قيل طاعة الوالدين واجبة في كل ما ليس بمعصية، ومخالفة أمرهما في ذلك عقوق، وقد أوجب كثير من العلماء طاعتها في الشبهات، وليس قول من قال من علمائنا يجوز له السفر في طلب العلم، وفي التجارة بغير إذنهما مخالفا لما ذكرته فإن هذا كلام مطلق، وفيما ذكرته بيان لتقييد ذلك المطلق^(٣).

البر بها حتى ولو كانت كافرة:

حُثَّ الشريعة على بر الأم ومصاحبتها في الدنيا معروفا حتى وإن كانت كافرة!

قال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن: قال أصحابنا في المسلم يموت أبواه، وهما كافران إنه يغسلهما ويتبعهما ويدفنها؛ لأن ذلك من الصحبة بالمعروف الذي أمر الله بها^(٤).

(١) انظر: محمد الطرطوشي، بر الوالدين ص ٣٢، والغزالي في أحياء علوم الدين

١٤٦/٣، وانظر: بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية ١٨٣/٥.

(٢) بر الوالدين ص ٨١.

(٣) ذكره النووي في شرح مسلم (١/ ١٨٩)، والعيني في عمدة القاري ٢٧٥/٢٠.

(٤) أبو بكر الجصاص، أحكام القرآن ١٥٦/٣، انظر: عبد الملك القاسم "ففيهما فجاهد،".

مجلة الدعوة، وتهميش الوالدين ص ٦٠.

ليس هناك شيء هو أظلم وأقبح من الكفر، والله تعالى لا يحب الكافرين، وبرغم ذلك كله، وسواء، فالولد مطلوب منه البر والإحسان حتى مع الوالدين الكافرين^(١).

عن مكحول، قال: قدم وفد الأشعرين على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: (أفيكم وجرة؟ قالوا: نعم. قال: فإن الله تعالى أدخلها الجنة ببر والدتها وهي مشركة - يعني الأم - أغير على حياء، فاحتملت أمها تشدد بها في الرمضاء، فإذا احترقت قدماها جلست وأجلست أمها في حجرها، وأظلتها من الشمس، فإذا استراحت حملتها)^(٢).

الثواب الجزيل لمن برّ بها:

قال ابن الجوزي: ولعظم ما أعد الله عز وجل من الأجور لمن قام بحق والديه وبر بهما؛ بكى الحارث العكلي في جنازة أمه فقيل له: تبكي؟ قال: ولم لا أبكي وقد أغلق عني باب من أبواب الجنة^(٣).

وعن ابن عباس أنه أتاه رجل، فقال: أني خطبت امرأة فأبّت أن تتكحني، وخطبها غيري فأحببت أن تتكحه، فغرت عليها فقتلتها، فهل لي من توبة؟ قال: (أمك حية؟ قال: لا. قال: تب إلى الله وتقرب إليه ما استطعت. فقال رجل لابن عباس: لم سألته عن حياة أمه؟ قال: (إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة)^(٤).

(١) البيرة، الهدي القرآني ص ١٢٨.

(٢) أخرجه أبو بكر أحمد من الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسبوني زغلول، ط ١، دار الكتب العلمية-بيروت ١٤١٠ هـ، ٢٠٩/٦، وذكرها ابن الجوزي في بر الوالدين ص ١٤٢.

(٣) ابن الجوزي، بر الوالدين ١/١٤١، موسى بن محمد الزهراني، تهमيش الوالدين في حياتنا ص ٦٠.

(٤) أخرجه البخاري، الأدب المفرد، ١/١٥، قال الألباني: صحيح. صحيح الأدب المفرد ٢/١، السلسلة الصحيحة ٢٩٨/٦.

تأكيد البر حتى بعد الوفاة:

لم تكتف الشريعة بالوصية بالبر تكرارا ومرارا، بل حضت على البر حتى بعد الوفاة تقديرا وتعظيما وتكريما لمكانتها حية وميتة، فكتب السنة النبوية والسيرة مليئة بأخبار الوفاء والبر والإحسان تمثلها الصحابة الكرام والسلف الصالح من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا دررا لامعة في جبين الأمة، شهد لهم القاصي والداني.

مقوق الأم من الكبار، وجزاؤه في الدنيا والآخرة:

بقدر حث الشريعة على المسارعة في الإحسان إلى الأم ونيل شرف البر، بقدر تحذيرها من الوقوع في العقوق، الذي يعد من أكبر الكبائر، وأفدح الخطايا والذنوب، فكما اقترن البر بالإيمان بالله، يقترن العقوق بالإشراك بالله والعياذ بالله.

قال ابن العربي: لذلك عدل عقوقهما الإشراك في الإثم، وهذا يدل على أن برهما قرين الإيمان في الأجر^(١).

وبهذه الجولة السريعة ظهر لنا جليا بيان أصل عظيم في الإسلام وهو حفظ كرامة المرأة وإعلاء قدرها وشأنها وكيف احتلت المرأة "كأم" مكانة عزيزة رفيعة وشأنا عظيما جليلا، لم يسبق الإسلام قانون من قوانين البشر، ولم يجئ بعده دستور من دساتيرهم يساوي الشريعة الغراء في نهجها السامي وشريعته الربانية^(٢).

(١) أحكام القرآن ٢٤٥/٥.

(٢) انظر تفصيل ذلك: محمد عبد الحميد أبو زيد، مكانة المرأة في الإسلام، دار النهضة العربية، ١٩٧٩، ص ٧١. وحسين آل الشيخ ص ٥٥، ومحمد علي الهاشمي، شخصية المرأة المسلمة ص ١٣٧.

• المبحث الثاني: مظاهر بر الأم في ضوء السنة النبوية الشريفة:

المطلب الأول: حث النبي صلى الله عليه وسلم على بر الأمهات:

الباحث المتأمل في النصوص الواردة في البر يجد الأحاديث الشريفة، والهدي النبوي مواكبة للآيات القرآنية الكريمة، مؤكدة فضل الأم ومحذرة من عقوقها، وقد نص المربي العظيم على البر وجعله بين أعظم عملين في الإسلام: الصلاة على وقتها، والجهاد في سبيل الله، والصلاة عماد الدين، والجهاد نروة سنام الإسلام، فأى مقام كريم جليل أعظم من هذا المقام^(١).

قال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمُ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمُ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ..."^(٢).

هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بر الأمهات:

أولاً: الأم أولى الناس بالصعوبة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحَسَنِ صُحْبَتِي؟^(٣) قَالَ: أُمُّكَ، فَقَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أَبُوكَ^(٤).

(١) محمد علي الهاشمي، شخصية المرأة المسلمة ص ١٣١-١٣٥.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/٢٧٤. ومسند الشاميين ٢/٢٩٧. وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٤/١٠١. ورجاله ثقات إلا أن يحيى بن جابر لم يسمع من المقدم والله أعلم، وذكره الهيتمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤/٣٥٠، قال المناوي: رجاله ثقات ١، فيض القدير ٥٦٢، وقال الألباني: ضعيف الجامع الصغير وزياداته ٩/١٣٣، وذكره في السلسلة الصحيحة ٧/٧٢.

(٣) أولى الناس بمعروفي وبري ومصاحبتي المقرونة بلين الجانب وطيب الخلق وحسن المعاشرة. ح صحيح مسلم ٥/٢٢٢٧.

(٤) أخرجه البخاري، في صحيحه ٥/٢٢٢٧، ومسلم في صحيحه ٤/١٩٧٤.

ثانيًا: زيادة في العمر:

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَا يَرُدُّ الْقَدْرُ إِلَّا الدُّعَاءَ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ"^(١). وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "مَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ طُوبَى لَهُ زَادَ اللَّهُ فِي عُمْرِهِ"^(٢).

ثالثًا: المعافاة على بر الآم باب يلج بك إلى الجنة:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الوالد أوسط باب الجنة، فإن شئتَ فاحفظ الباب أوضيْعَ"^(٣).

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيِّ، قَالَ: "كَانَ فِينَا رَجُلٌ لَمْ تَزَلْ بِهِ أُمُّهُ أَنْ يَنْزَوِّجَ حَتَّى تَزَوِّجَ، ثُمَّ أَمَرَتْهُ أَنْ يُفَارِقَهَا، فَرَحَلَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ بِالشَّامِ، فَقَالَ: إِنَّ أُمِّي لَمْ تَزَلْ بِي حَتَّى تَزَوِّجَنِي، ثُمَّ أَمَرْتَنِي أَنْ أَفَارِقَ قَالَ: مَا أَنَا بِالَّذِي

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٢٧٨/٨، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. والبيهقي في القضاء والقدر ٢٠٦/١، والطبراني في المعجم الكبير ١٢١/٢، وفي الدعاء ٣١/١، والحاكم في المستدرک ٦٧٠/١. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. لا ذهبي قال الألباني: ضعيف، في صحيح وضعيف الجامع الصغير ١٤٤٩/١.

(٢) أخرجه محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطاء، ط ١، دار الكتب العلمية-بيروت ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م ١٧٠/٤. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، علق الذهبي في التلخيص: صحيح ١٧٠/٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٥/٦، وعلق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن من أجل عطاء بن السائب وقد سمع منه سفيان الثوري قبل اختلاطه ٤٤٥/٦ - و الحاكم في المستدرک ١٦٨/٤، علق الذهبي في التلخيص: صحيح. ١٦٨/٤.

أَمْرُكَ أَنْ تُفَارِقَ، وَمَا أَنَا بِالَّذِي أَمْرُكَ أَنْ تُمْسِكَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَأُضِغْ ذَلِكَ الْبَابَ، أَوْ احْفَظْهُ قَالَ: فَرَجَعَ وَقَدْ فَارَقَهَا^(١).

رابعاً: وصية الله سبحانه وتعالى ثلاثاً بالأم:

وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأَبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَأَلْأَقْرَبُ"^(٢).

خامساً: الاجتهاد في رضا الأم شرطاً لرضا رب العزة سبحانه:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: "رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ"^(٣).

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٤٥/٦، وعلق شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن من أجل

عطاء بن السائب وقد سمع منه سفيان الثوري قبل اختلاطه ٤٤٥/٦، و الحاكم في

المستدرك ١٦٨/٤، علق الذهبي في التلخيص: صحيح. ١٦٨/٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٩٢/١، أحمد في مسنده ١٣١/٤ و الطبراني في

مسند الشاميين ١١٦/١، قال ابن حجر: إسناده حسن التلخيص الحبير ١٣٠٤/٤،

وقال الألباني: صحيح. في صحيح الأدب المفرد ٣٥/١، وحسن. محمد ناصر الدين

الألباني، صحيح وضعيف سنن ابن ماجه،: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية -

المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية،

(٢٩٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٣١٤/٧، و أخرجه الحاكم في المستدرك ١٦٨/٤. قال

الحاكم: هذا حديث على شرط مسلم و لم يخرجاه، علق الذهبي في التلخيص: على

شرط مسلم ١٦٨/٤. قال الألباني: - صحيح، في صحيح الترمذي (١٨٩٩)، ثم

تراجع الشيخ وحسنه، انظر: " السلسلة الصحيحة " رقم: (٥١٦)، وصحيح الترغيب

والترهيب ٣٣١/٢.

سادساً: لزوم الام وبرها طريق موصل إلى الجنة:

عن معاوية بن جهم السلمي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أريد الجهاد معك في سبيل الله أبتغي بذلك وجه الله والدَّارَ الآخرة قال: "أحياة أمك؟" قال: قلت: نعم. قال: "الزَّمنها". قلت: ما أرى رسول الله ﷺ فهم عني قال: ثم جئته من ناحية أخرى، فقلت له مثل ذلك؟ فقال: "أحياة أمك؟" قال: قلت: نعم. قال: "الزَّمنها". قال: قلت: ما أرى رسول الله ﷺ فهم عني قال: ثم جئته من ناحية أخرى، فقلت له مثل ذلك فقال: "أحياة أمك؟" فقلت: نعم قال: "فالزَّمن رجلها فثمَّ الجنة"^(١).

سابعاً: تقديم بر الأم على النوازل، وفروض الكفاية، وبلوغه مرتبة الجهاد:

عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: "أقبل رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبايعك على الهجرة والجهاد ليتبغى الأجر من الله تعالى، قال فهل من والدك أحد حي؟ قال: نعم بل كلاهما حي. قال فتبغى الأجر من الله؟ قال: نعم. قال فارجع إلى والدك فأحسن صحبتَهُما"^(٢).

. عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: "في الرجل الذي جاء يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أحى والدك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد"^(٣).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥١٨/٦، و ابن ماجه في سننه ٩٢٩/٢، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٢٠٦/٥. قال الألباني: صحيح، في صحيح ابن ماجه ١٢٥/٢، وفي الأرواء ٢٠-٥/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه ٢٢٢٨/٥، ومسلم في صحيحه بلفظه ١٩٧٥/٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٢٢٨/٥، ومسلم في صحيحه ١٩٧٥/٤.

ثامناً: الدعاء لها سبباً في رفعة درجاتها في الجنة:

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ" (١).

تاسعاً: تنافس الصعابة في التصديق عنها حياة وميتة:

عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - . أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ - ﷺ - إِنَّ أُمِّي افْتُلِنَتْ (٢) نَفْسُهَا، وَأَظْنُهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتُ، فَهَلْ لَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا قَالَ «نَعَمْ» (٣).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - إِنَّ أُمَّهُ تُوَفِّيَتْ أَيْنَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا قَالَ «نَعَمْ». قَالَ فَإِنَّ لِي مِخْرَافًا (٤) وَأَشْهَدُكَ أَنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا (٥).

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥٠٩/٢، و أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، مكتبة الرشد- الرياض ١٤٠٩ هـ ٩٣/٦، وابن ماجه في سننه ١٢٠٧/٢، قال الألباني: حسن. انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٩٨)، وصحيح الجامع (١٦١٧)، وصحيح ابن ماجه ٢١٤/٣.

علق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود وهو ابن بهدلة وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح. ٥٠٩/٢.

(٢) افتلتت: ماتت فجأة وأخذت نفسها فلتة. شرح النووي ٤٤٤/٣.

(٣) أخرجه البخاري، في صحيحه ٤٦٧/١، ومسلم في صحيحه ١٢٥٤/٣.

(٤) مخرفا المخرف: النخل، لأنها تخترف ثمارها، أي: تجتني. انظر: فتح الباري ١١١/١.

(٥) أخرجه البخاري، في صحيحه ١٠١٩/٣.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ سَعْدًا، قَالَ: إِنَّ أُمِّي تُوَفِّيتُ وَلَمْ تُوصِي، فَهَلْ يَنْفَعُهَا
إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنَّ حَائِطِي صَدَقَةٌ عَلَيْهَا" (١).

ماشراً: حث الصعابة في قضى ما عليها من حق:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ -
فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ، وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ، أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا قَالَ «
نَعَمْ - قَالَ - فَذَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى» (٢).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَرْزَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي تَصَدَّقْتُ عَلَى أُمِّي
بِجَارِيَةٍ وَإِنَّهَا مَاتَتْ فَقَالَ: وَجِبَ أَجْرُكَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكَ الْمِيرَاثُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ، إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قَالَ صُومِي عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّهَا لَمْ
تَحُجَّ قَطُّ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: حُجِّي عَنْهَا" (٣).

العادي عشر: استمرار البر والإحسان والود والسؤال عنها:

وَعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ، صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَكَانَ بَذْرِيًّا، وَكَانَ مَوْلَاهُمُ،
قَالَ: قَالَ أَبُو أُسَيْدٍ: بَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - - إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ
الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٌ بَعْدَ مَوْتِهِمَا
أَبْرُهُمَا بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ خِصَالُ أَرْبَعَةٍ: الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ
عَهْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا رَحِمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قَبْلِهِمَا، فَهُوَ
الَّذِي بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ بَرِّهِمَا بَعْدَ مَوْتِهِمَا. (٤)

(١) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة ٢٤/ ٢١٥، وابن الجوزي في بر الوالدين ١٠/١.

(٢) أخرجه البخاري، في صحيحه ٦٩٠/٢، و مسلم في صحيحه ٨٠٤/٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٨٠٥/٢.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢٧/١. وابن ماجه في سننه ١٢٠٨/٢ قال
الألباني: ضعيف، ضعيف أبي داود ٥٠٨/١، والحاكم في المستدرک ١٣٢/٦، وقال:
هذا حديث صحيح ولم يخرجاه قال الذهبي: صحيح. وأخرجه ابن العربي في أحكام
القرآن ٢٤٥/٥. وابن حبان في صحيحه ١٥٢/٢.

الثاني عشر: تعدي الفضل للغاية لمنزلة الأم الرفيعة:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، " إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبِرَّةٌ. ^(١)

الثالث عشر: الإحسان إلى الأم الكافرة في أمور الدنيا مستمر، وصلة رحمها دائمة:

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ - رضي الله عنهما - قَالَتْ قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: "إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ" وَهِيَ رَاغِبَةٌ ^(٢)، أَفَأَصِلُ أُمِّي قَالَ: « نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ » ^(٣).

وبهذه النصوص المتضافرة الغزيرة بالنصح والإرشاد في الهدى النبوي الشريف، في الحث على بر الأم والإحسان إليها يتجلى لنا المكانة العالية المرموقة للأم، التي تعلي مكانتها بين بني جنسها وترفع مكانة الولد البار بها في الحياة الدنيا، وترجح كفة ميزانه في الدار الآخرة.

المطلب الثاني: بر النبي صلى الله عليه وسلم لأمه:

وكما أن برّ الوالدين هو هدي نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، فهو كذلك هدي الأنبياء قبله قولاً وفعلًا، وقد سبق بيان هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في ذلك ما بين تكريم، وتعزيز، وتوصية، وإرشاد، وتبجيل، وشفقة، وتسديد، ورحمة، وهداية، وبيان مكانة ورفعة، أمّا من فعله -صلى الله عليه وسلم-

(١) أخرجه الترمذي، في سننه ٣٥١/٧، والحاكم في المستدرک ١٧١/٤. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، علق الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. ١٧١/٤.

(٢) قال النووي، قيل: معناه راغبة في الإسلام وكارهة له. شرح مسلم ٤٤٤/٣.

(٣) أخرجه البخاري، في صحيحه ٢٢٣٠/٥، ومسلم في صحيحه ٦٩٦/٢.

الله عليه وسلم - فإنه لما مرَّ على قبر والدته آمنة بنت وهب بالأبواء حيث دفنت - وهو مكان بين مكة والمدينة - ومعه أصحابه وجيشه، وعددهم ألف فارس، وذلك عام الحديبية، فتوقف وذهب يزور قبر أمِّه، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم - جأبي هو وأمي - وأبكى من حوله، فعن أبي هريرة، قال: زار النبي ﷺ قبر أمِّه، فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، فاستأذنته أن أستغفر لها، فلم يأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت^(١).

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: "زار النبي ﷺ قبر أمِّه في ألف مقنع، فلم ير باكيًا أكثر من يومئذ"^(٢).

وقال القاضي: بكأؤه ﷺ على ما فاتها من إنراك أيامه، والبايمان به^(٣). وقال أبو هريرة وبريدة: لما قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها، فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٤) الآية، فقام وبكى وبكى من حوله فقال: «إني استأذنت ربي أن أزورها فأذن لي واستأذنته أن استغفر لها، فلم يأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت"^(٥)، فلم نر باكيًا أكثر من يومئذ^(٦).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٢٤/٦ - ٢٢٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٥٣١/١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ٤٠٣).

(٤) سورة التوبة (١١٣).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٥١٢/ ١٤، وأخرجه الحاكم في المستدرک ٤٩٨/١ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٥١٢/١٤، الثعلبي في الكشف والبيان ٢٣٤/٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣٢٤/٣.

وقوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١) اختلف في سبب نزولها على ثلاثة أقاويل: أحدها: ما روى مسروق عن ابن مسعود قال: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المقابر، فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فواجه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فدعاه ثم دعانا فقال: « ما أبكاكم؟ » قلنا: بكينا لبكائك، قال: « إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة وإنني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، وإنني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل الله علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ فأخذني ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة»^(٢).

المطلب الثالث: امتداح النبي صلى الله عليه وسلم لأويس القرني في بره

لأمه:

إذا كان المزكي هو رسول الله - صلى آله عليه وسلم -، الذي لا ينطق عن الهوى فيكفي المرء شرفاً ورفعة ومكانة، أن يمتدحه الرسول صلى الله عليه وسلم، وما بلغ هذا الفضل بمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا ببره لأمه الذي بلغه المنزلة العالية، فقد كان الصحابة يتشوفون لرؤيته، وقصة عمر - رضي الله عنه - في ذلك مشهورة، إنه أويس

(١) سورة التوبة ١١٣.

(٢) ذكره البغدادي، النكت والعيون ١٤٧/٢.

القرني^(١) رحمه الله النموذج الرائع في برّه وإحسانه، اكتسب شرف مدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، بفضل شغله ببر أمه، حتى إنه ما كان يستطيع زيارة النبي - ﷺ- ومشاهدته ولو مرة، لينال شرف الصحبة،

(١) هو: أويس القرني القدوة الزاهد، سيد التابعين في زمانه.

أبو عمرو، أويس بن عامر ابن جزء بن مالك القرني المرادي اليماني. وروى هشام بن حسان، عن الحسن، قال: يخرج من النار بشفاعة أويس أكثر من ربيعة ومضر.

وروى خالد الحذاء، عن عبد الله بن شقيق، عن ابن أبي الجدعاء، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يدخل [الجنة] بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم ". أخرجه الترمذي ٦٢٦/٤، والدارمي ٣٢٨/٢ وابن ماجه ٤٣١٦ وأحمد ٣٤٦٩/٤٧٠، من حديث عبد الله بن جدعاء، وسنده قوي، وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر مجمع الزوائد ٣٨١/١٠ و ٣٨٢.

قال أبو زرعة الرازي: حدثنا سعيد بن أسد، حدثنا ضمرة عن أصبغ بن زيد، قال: كان أويس إذا أمسى يقول: هذه ليلة الركوع، فيركع حتى يصبح، وكان إذا أمسى يقول: هذه ليلة السجود، فيسجد حتى يصبح. وكان إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والشراب. ثم قال: اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به.

عن أصبغ بن زيد، قال: إنما منع أويساً أن يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم برّه بأمه، فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عليه.

عن أسير بن جابر: أن أويساً القرني كان إذا حدث يقع حديثه في قلوبنا موقعا ما يقع حديث غيره.

انظر ترجمته: عند عبد الرحمن بن علي الحنبلي، ابن الجوزي، في صفوة الصفوة، الأوراق، ٣٠٨/١ - ٣١٢، وأبو نعيم، في الحلية ٨٧/٢، و الذهبي في سير أعلام النبلاء ٣٣-١٩/٤.

لاحتياج أمه إليه^(١) - فقد فهم، ووعى أويس - رحمه الله - تلك المعاني السامية، و الدلالات التي ينطوي عليها معنى (الصحة) للوالدين ولهي جديرة بأن يتأملها العاقل الحصيف، وهو يتعامل مع والديه غير غافل عن تلك المعنى الكبير الذي يدل عليه قول النبي - ﷺ - لذلك الرجل الذي جاءه يبأبعه على الهجرة، وللجهاد في الحديث المتفق عليه من رواية عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: «قَبِلَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَبَايُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ لِيَتَّبِعِيَ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ فَهَلْ مِنْكَ أَلَدٌ حَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا حَيٌّ. قَالَ فَتَتَّبِعِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ فَارْجِعِي إِلَى وَالِدَيْكَ فَأُخْزِنِ صُحْبَتَهُمَا»^(٢).

وهذا الحديث الشريف ينبغي أن يتأمله العاقل الحريص على صحة والديه، وإحسان هذه للصحة، وإنزالها منزلتها اللائقة بها " لأن النبي - ﷺ - لم يعلم أن له أبوين ليقال: لعله كانت له حاجة أو بكاء وشفقة، بل علق الحكم على مجرد الأبوة، وأيضاً فإنه لا صحة أجل وأشرف من صحة النبي - ﷺ - ، ثم قتم للنبي - ﷺ - صحبتها على صحبته، وناهيك بصحبته - عليه الصلاة والسلام - وسيلة وداعياً إلى الله تعالى وقربة، ومعلوم أن الغلا بأسره، والخير بحدافيره في صحة النبي - ﷺ ، ثم ندب الولد إلى صحبتها دون صحبته " ^(٣).

وقد تمثل أويس القرني ذلك الأمر الرشيد، والهدي القرآني الكريم في

(١) بتصرف: الشهود، الخلاصة ص ٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه ٢٢٢٨/٥، ومسلم في صحيحه بلفظه ١٩٧٥/٤.

(٣) ابن الجوزي، بر الوالدين ص ٧٧. وانظر: البيرة، الهدي القرآني ص ٩٩-١٠٠.

قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(١) الآية. ومدار هذه الكلمة على الملازمة والحفظ، والصاحب هو الملازم، والأصل في الصحبة أن تكون بالبدن وهو الأكثر، وقد تكون بالعناية^(٢)، والهمة، ولا يقال عرفاً - صاحب - إلا لمن كثرت ملازمته. و تقتضي طول اللبث.

فكانت صحبته لأمه كريمة عز من فعل مثلها فأعلى الله ذكره، وأشاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بفعله بل حث الصحابة الكرام إذا هم رأوه أن يطلبوا منه أن يستغفر لهم، وقد قر هذا المعنى في نفوس الصحابة الكرام، فكانوا يطلبونه في كل وفد اليمن، ونترككم مع هذه الصور الرائعة والقصة الجميلة من البر والإحسان التي تدل على حسن صحبة الأم وحفظها، وتشتع في الحياة معاني الجمال، والخير، والرحمة، وحسن الصحبة^(٣)، وأهم من ذلك كله كرم الله لأويس برفع ذكره، في العالمين.

عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أَتَتْ عَلَيْهِ - وَفِي رِوَايَةِ الْمُقَرِّي: إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ - أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ: أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ فَقَالَ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ مَرَادٍ نُمِّ مِنْ قَرْنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: كَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرِئْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ بَرَصِهِمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَلَاكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ عُمَرُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مَرَادٍ نُمِّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ بَرَصِهِمْ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ

(١) سورة لقمان، الآية (١٥).

(٢) انظر: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (١٤٧٦هـ)، ولسان العرب (١/٥١٩-٥٢١).

(٣) بتصرف: البيرة، الهدى القرآني ص ٩٧-٩٨.

أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَأَفْعَلْ"، فَاسْتَغْفِرَ لِي، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ. قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا. وَفِي رِوَايَةِ الْمُقَرِّي: أَلَا أَكْتُبُ إِلَيْ عَامِلِهَا فَيَسْتَوْصُوا بِكَ خَيْرًا؟ فَقَالَ: لِأَنْ أَكُونَ فِي غَمَرِ النَّاسِ، وَفِي رِوَايَةِ الْمُقَرِّي: فِي غَمَرِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَسَأَلَ عُمَرَ عَنْ أُوَيْسٍ، كَيْفَ تَرَكْتَهُ قَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ - وَفِي رِوَايَةِ الْمُقَرِّي: رَثَّ الثِّيَابِ - قَلِيلَ الْمَتَاعِ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْذَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ بَرَصِهِمْ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَأَفْعَلْ". فَلَمَّا قَدِمَ الرَّجُلُ أَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: أَنْتَ أَخَذْتَ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ. فَاسْتَغْفِرَ لِي وَقَالَ: لَقِيتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْتَغْفِرَ لَهُ، قَالَ: فَفُطِنَ لَهُ النَّاسُ فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ، قَالَ أُسَيْرٌ: فَكَسَوْتُهُ بُرْدًا فَكَانَ إِذَا رَأَهُ إِنْسَانٌ قَالَ: مِنْ أَيْنَ لِأُوَيْسٍ هَذَا؟ (١).

• المبحث الثالث: صور من برّ الصحابة لامهاتهم في ضوء الهدى النبوي؛

قد حفل تاريخنا الإسلامي العظيم بمواقف رائعة نيرة تحلّ بجلاء ووضوح على ما استقر في وجدان أمتنا من تقدير لمكانة الأم ووفاء، وتأكيداً لحقها في صحبة أبنائها والأنس بها، وذلك دليل واضح وبرهان ساطع على أثر الهدى القرآني العظيم، والسنة النبوية الشريفة في تربية الأمة بما بيّنا من حقوق للأُم، ودليل على فضلها وشأنها (٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٦٨/٤.

(٢) انظر البيرة، الهدى القرآني ص ٨٣.

المطلب الأول: برّ عثمان بن عفان رضي الله عنه :

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبرّ من كان في هذه الأمة بأَمَهما. عثمان بن عفان ^(١)، وحارثة بن النعمان رضي الله عنهما.

قد جسد برّ ابن عفان الصحابي الجليل الموصوف بالحياء، البرّ في أجمل صورته، وأروع حلله، وقد شهدت لهذا البرّ أم المؤمنين عائشة رضي

(١) هو: عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي، القانت ذو النورين، والخائف ذو الهجرتين، والمصلي إلى القبلتين، قال علي: كان عثمان من الذين: " آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين " المائدة (٩٣)، وعن عبد الله بن الرومي، قال: بلغني أن عثمان قال: لو أني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير، وعن عبد الرحمن بن سمرة، قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش العسرة، فجاء عثمان بألف دينار فنثرها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ولى، قال: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقلب الدنانير وهو يقول: " ما يضر عثمان ما فعل بعدها اليوم " عن محمد بن سيرين، قال: قالت امرأة عثمان بن عفان حين أطافوا به يريدون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيي الليل كله في ركعة يجمع فيها القرآن. وقد قتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشرة من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكانت خلافته اثنتي عشرة إلا اثني عشر يوما « انظر ترجمته: عبد الله بن أحمد، فضائل عثمان بن عفان، موقع جامع الحديث، ١٤٤-٢/١، الطبري، الرياض النظرة ٢٠٣/١، ابن عبد البر، الاستيعاب ٦٩/٣، ابن الأثير، علي بن محمد الجوزي، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض وعلى أحمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ ٥٧٨/٣، وابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢ هـ ٤١٩/٢.

الله عنها، وعزز قولها بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له، فعن بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشدّ أمتي حياءً عثمان بن عفّان" (١).

وعن الحسن في ذكره عثمان وشدة حيائه قال: "إن كان ليكون في البيت والباب عليه مغلق، فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه" (٢).

والحياء أنواع، ومنه حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجد المرء نفسه مستحيًا من نفسه؛ حتى لكان له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيى من نفسه فهو أن يستحيى من غيره أجدر وأشدّ، فكيف يكون مع أمه (٣).

والحياء جمال، وخلق كمال. يحترم في عيون الناس صاحبه، ويزداد قدره وإذا رأى ما يكره غضّ بصره عنه. وكلما رأى خيراً قبله وتلقاه، أو

(١) أخرجه أبو نعيم، حلية الأولياء ٢٩/١، قال الألباني: صحيح، الجامع الصغير ١٠١/١. وصحيح الجامع الصغير (١٠٠٢).

(٢) ذكره الطبري في، الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢٠٣/١، ابن الجوزي، صفوة الصفوة ٣٠٤/١، وأبو نعيم، حلية الأولياء ٢٩/١.

(٣) وأم عثمان هي أروى بنت كريز بالتصغير بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وهي شقيقة عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم، ويقال أنهما ولدا توأماً حكاة الزبير بن بكار فكان ابن بنت عمه النبي صلى الله عليه وسلم وكان النبي صلى الله عليه وسلم ابن خال والدته وقد أسلمت أم عثمان كما في كتاب الصحابة. ابن حجر، فتح الباري ٥٥/٧.

أبصر شرًا تحاماه. يمتنع عن البغي والعدوان، ويحذر الفسوق والعصيان، يخاطب الناس منهم في خجل، ويتجنب محارم الله عز وجل. فمن لبس ثوب الحياء استوجب من الخلق الثناء ومالت إليه القلوب، ونال كل أمر محبوب، ومن قلّ حياؤه قلّ أحباؤه. والسر في كون الحياء من الإيمان: لأن كل منهما دأب إلى الخير مقرب منه صارف عن الشر مبعد عنه، فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصي والمنكرات.

فما أجمل أن تجتمع في ابن عفان تلك الخلتين الحياء وثمرته البر، فعن عثمان أنه قال: "ما قدرت أتأمل وجه أمي منذ أسلمت"^(١) فسبحان من أكرمه بهذا البر، وحق له هذا الكرم فما بلغ سيدنا عثمان هذا المبلغ إلا تطبيقا لهدي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا كيف بإبن لم يستطع أن يتأمل وجه أمه منذ أسلم، إلا إيمان وقر في قلبه، وصدقته جوارحه، وهو الذي لم تمس يمينه عورته منذ أسلم^(٢). صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في خبره عن عثمان في الحياء، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصدقها حياء عثمان رضي الله عنه"^(٣).

و عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال: "ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة"^(٤) وكان محببا في قريش، وفيه يقول قائلهم: أحبك الرحمن حب قريش عثمان^(٥).

(١) ذكره ابن الجوزي، بر الوالدين ص ١٣٨.

(٢) أنظر: الطبري، الرياض النضرة ٢٠٣/١، عبد الله بن أحمد، فضائل عثمان ١١٠/١، وابن حجر في الإصابة ٤١٩/٢.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد، في فضائل عثمان بن عفان ٩٩/١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٦٦/٤، الطبري في الرياض النظرية ٢٠٣/١.

(٥) الطبري في الرياض النظرية، ٢٠٣/١، السيوطي، الحباثك في أخبار الملائك ٥٢/١.

المطلب الثاني: برُّ أبي هريرة رضي الله عنه:

راوي أكثر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه يقول ابن كثير: "لقد كان أبو هريرة ^(١) - رضي الله عنه - من الصدق والحفظ والديانة والعبادة والعمل الصالح على جانبٍ عظيم؛ كان يقوم ثلث الليل وامراته ثلثه وابنته ثلثه، يقوم هذا ثم يوقظ هذا، وكان يقسم الليل ثلاثة أقسام: جزء لقراءة

(١) هو: الصحابي الجليل، عبد الرحمن بن صخر الصحابي الفقيه المجتهد الحافظ أكثر الصحابة رواية، وقد روى عنه ثمانمائة من أصحابه، أسلم وقدم على النبي ﷺ سنة سبع عام خيبر ومات سنة ٥٩ للهجرة، فلزم رسول الله ﷺ أربع سنين يتعلم لم يفارقه في حضر ولا سفر، وقد قال عن نفسه: تزعمون أنني أكثر الرواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم، والله الموعود - إنني كنتُ امرأً مسكيناً أصحَب رسول الله على ملءِ بطني، وأنه حدثنا يوماً: «ومن يبسط ثوبه حتى أقضي مقالتي ثم قبضه إليه لم ينسئ شيئاً سمع مني أبداً»، ففعلت، فهو الذي بعثه بالحق ما نسيت شيئاً سمعته منه، وكان يقول: إن إخواني المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكان إخواني الأنصار يشغلهم عمل أموالهم وكنتُ امرأً مسكيناً من مساكين الصفقة، ألزَم رسول الله على ملءِ بطني، فأحضر حين يغيبون، وأوعى حين ينمون، وجاء في البخاري من قول أبي هريرة - رضي الله عنه -: ما أخذ من أصحاب رسول الله أكثر حديثاً مني عنه إلا ما كان من عبدالله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب وكنت لا أكتب. ولقد أقعد مروان كاتبه خلف السرير يكتب وأبو هريرة يحدث، فلما كان رأس الحول دعا به فأقعده من وراء حجاب فجعل يسأله عن ذلك الكتاب فما زاد ولا نقص، ولا قدم ولا آخر، قال الإمام الذهبي عقب هذه الحكاية: "هكذا يكون حفظ"، وعن مكحول قال: تواعد الناس ليلة في قبة من قباب معاوية فاجتمعوا فيها، فقام فيهم أبو هريرة يحدثهم عن رسول الله صل الله عليه وسلم حتى أصبح، انظر: ابن الأثير، أسد الغابة ٣١٨/٦، وابن عبد البر، الاستيعاب ١٧٦٨/٤، "وأبو نعيم، حلية الأولياء ٣٨٥/١-٣٧٦" والذهبي، سير أعلام النبلاء ٥٧٨/٢.

القرآن، وجزء لنومه، وجزء يتذاكر فيه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم. روى أحاديث عدة في البر فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يجزي ولد والد إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه"^(١). وعن أبي هريرة، قال: إن رجلاً قال: يا نبي الله، من أبر؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "أبوك"،^(٢) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه". قيل من يا رسول الله قال: "من أذرك والدته عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة"^(٣).

وقد تمثل هذا الغلام الدوسي ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان باراً بأمه، وخبره وقصته في دعوة أمه جاءت في صحيح مسلم وغيره. وإنما اكتسب البر وما اتصف به من أخلاق عالية، بوائه المكانة السامية، كثرة بره بأمه وملازمته إياها، فإنه رضي الله عنه لما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "العبد المملوك المصلح أجران"^(٤) قال: والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله، والحج، وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك^(٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١١٤٨/٢.

(٢) أخرجه البيهقي، شعب الإيمان ١٠/٢٥٣، (٧٤٥٤) صحيح.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٧٨/٤.

(رغم أنفه) بالكسر أي لصق بالرغام أي التراب هذا أصله ثم استعمل في النذل والعجز عن الانتصاف من الظالم وقال القاضي: يستعمل رغم مجازاً بمعنى كره من باب إطلاق اسم السبب على المسبب.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١٢٨٤/٣.

(٥) المصدر السابق.

وعن الحسن بن عمرو، قال: سمعت بشر بن الحارث يقول: "الولد بالقرب من أمّه حيث تسمع أفضل من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله عزّ وجلّ، والنظر إليها أفضل من كلّ شيء" ^(١). وقال سعيد بن المسيب: وبلغنا أن أبا هريرة رضي الله عنه لم يكن يحج حتى ماتت أمّه لصحبته. ومن برّه بأمّه أيضًا ما أخرجه ابن سعد، أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه تمرّتين، قال أبو هريرة: فأكلت ثمرة وجعلت ثمرة في ججري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا هريرة لم رفعت هذا التمرة؟ فقلت: لأمي، فقال: كلها فإننا سنعطيك لها تمرّتين، فأكلتها وأعطاني لها تمرّتين" ^(٢).

وعن أبي مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب: "أنه ركب مع أبي هريرة إلى أرضه بـ (العقيق) فإذا دخل أرضه صاح بأعلى صوته:

عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أمّاه.

تقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

يقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً.

فتقول: يا بني ! وأنت فجزاك الله خيراً ورضي عنك كما بررتني كبيراً" ^(٣) قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ^(٤).

(١) ذكره ابن الجوزي، في بر الوالدين ص ١٣٧.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٢٩/٤، وابن عساكر في، تاريخ دمشق ٣٢٢/٦٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٣١٩/٧. قال الألباني: و رجاله ثقات ؛ غير هلال والد محمد، و هو ابن أبي هلال المدني ؛ قال الذهبي: " لا يعرف " السلسلة الضعيفة ٩٥/٥.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢٢/١، وابن وهب في الجامع ١٥٥/١، قال الألباني: حسن الإسناد، صحيح الأدب المفرد ٦/١.

(٤) سورة الإسراء، الآية (٢٣).

إن القول الطيب يحدث أثراً طيباً وعجيباً في نفوس الآخرين مودة، وقرباً، وإحساناً، وتواصلاً، وعلى العكس من ذلك يكون الأثر السيئ الذي ينجم عن القول المؤذي، تباغضاً وتباعداً، وتقاطعاً، وتدابراً. وقد وجّه الله تعالى عباده المؤمنين إلى أهمية القول للناس حسناً ليكونوا علامات نيرة جميلة تتبرّد الدرب للسالكين، وإذا كان تحري الحسن، والطيب من القول مع الآخرين مطلوباً ومرغوباً فهو مع الأمّ أوجب، وألزم، و أكاد، فهي أولى الناس بسماع ذلك من ولدهما لأنهما قد أسمعاه ذلك كثيراً سنين طويلة من عمره وهما به فرحان مسروران منذ ولادته، فلم يسمع منهما - وهو صغير - إلا كلاماً حلواً جميلاً، ويداعبان مشاعره، ويلطفانه بذلك وسواه، مما كان سبباً في بناء شخصيته فيما بعد، وذلك هو عطاء الوالدية الرحب الفياض والذي يعجز الواصفون عن الإحاطة بجوانبه، فهو عطاء لا يسعه رحب الأرض الواسع وصفاً لخيره الكثير وآثاره الكريمة. فلا أقل من أن يبادلهم الولد بشيء من ذلك، ويرد شيئاً من جميلهما الكبير الواسع، والحال أنهما قد كبر سنهما، ووهنت قواهما، وظهرت إليه حاجتهما، وابتعد عنهما الصديق، والقريب، والرفيق، فلم يبق لهما إلا ولدهما، ويظهر بره في طيب مقالته، وحسن معاملته. والقول مقدمة الفعل، وهو يدل على ما بعده، فالوالدان في هذه المرحلة في حاجة إلى مراعاة مشاعرهما، وبداية ذلك القول، فالقول له أثاره في نفسيهما^(١)، ولذلك كله وسواه جاء الأمر الإلهي الكريم للولد بأن يكون قوله لوالديه - خاصة في مرحلة كبرهما - قولاً كريماً، قال الله تعالى:

﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٢).

(١) البيرة، من معالم الهدى القرآني ١٠٤.

(٢) سورة الإسراء، (٢٣).

والعجيب أن مقالة المفسرين لم تحدّد المراد من القول الكريم فجاءت عباراتهم تدلّ على اجتهاد أصحابها في محاولة منهم لتقريب ذلك، فتارة فُسِّر: بأنّه القول اللين الطيب الحسن في أدب وتوقير وتعظيم، وإكرام، وتارة فُسِّر: بأنّه القول الشريف الذي يسرّ الوالدين ولا يسوءهما بأذى نوع من الإساءة، وتارة فُسِّر بأنّه القول المحمود في كلّ أحواله، وما ينشأ ويترتب عليه^(١). وقد تمثل تلك المسؤولية التي ألقيت على كاهل الولد بهذا الأمر الإلهي الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٢)؛ ليكون قوله لأمه مشتملاً على تلك المعاني أو شيء منها، وهو أمر يدل على ما ينبغي أن يأخذ الولد به نفسه مجاهدة لها في طاعة الوالدين ليحملها على بذل معاني الفضل والخير، والبر، والإحسان فيكون قوله له كريماً يحمل معاني الوسع والشرف، والرضا، والطيبة، وكثرة المنافع، فالقول الكريم بذلك يدل على نفس قائله، فهو لا يصدر إلا من نفس كريمة. وهو قول كريم في ألفاظه ودلالاته ومضامينه وأبعاده، وهو كريم بما يحدثه من آثار كريمة في نفس الأم التي هي من أعظم القرب عند الله، وهو قول يشعر بما تفيض به نفس قائله من معاني الحب والعرفان والوفاء والتقدير لفضلها العظيم، الذين تشرح نفوسها بسماع القول الكريم من ولدها فتتملئ بمعاني الغبطة، والانشراح، والسرور، والرضا. وذلك كله مدعاة لاستجلاب رضا الله تبارك وتعالى وهو رضا يسعد الولد بسببه بالخير العميم في الدنيا والآخرة، فقد كرّمت نفسه، فكرّمت بذلك مقالته لوالديه فأكرمه ربّه بذلك ووعد به بدار

(١) انظر: الطبري، جامع البيان ٤١٧/١٧، الماوردي، النكت والعيون ٢١٨/٢، والبيرة،

الهدى القرآني ١٠٥.

(٢) سورة الإسراء، (٢٣).

الكرامة التي يُلَقَّى فيها المكرمون من ربهم تحية وسلاماً^(١). والجزاء من جنس العمل.

عن محمد بن سيرين قال: كنا عند أبي هريرة ليلة، فقال: "اللهم اغفر لأبي هريرة، ولأمي، ولمن استغفر لهما" قال لي محمد: فنحن نستغفر لهما؛ حتى ندخل في دعوة أبي هريرة^(٢).

ما أجمل هذا الصنيع الذي قل ذكره في الوصية بالدعاء للألم إلى يوم القيامة، والحث عليه بدعاء الله أن يغفر لكل من استغفر له ولأمه ومن صورته البر قبل ذلك عن أبي كثير يزيد بن عبد الرحمن، حدثني أبو هريرة، قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فاستمعتني في رسول الله ﷺ ما أكرهه، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فاستمعتني فيك ما أكرهه، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ: "اللهم اهدي أم أبي هريرة" فخرجت مستبشرة بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خنخضة الماء، قال: فاعتسكت وليست برعها وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيتُهُ وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت يا رسول الله أنبئني قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً، قال قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحبني أنا

(١) البيرة، من معالم الهدي القرآني ١٠٦.

(٢) قال الألباني: صحيح الإسناد، الألباني، صحيح الأدب المفرد ١٧/١.

وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحَبِّبُهُمَ إِلَيْنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَيْنَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ" فَمَا خَلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي^(١)، وهذه ثمرة برّ الأم، والخوف عليها من شركها فأكرمها السميع العليم بهدايتها، بل أجزل له في الكرم والجود بأن سأل رسول الله ﷺ أن يحببه وأمه إلى عباد الله المؤمنين، فأبي شرف، وأي رفعة، وأي قدر أجراه الكريم لأبي هريرة وأمه رضي الله عنهم.

المطلب الثالث: برّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛

صورة أخرى من البرّ يجسدها برّ عبد الله بن مسعود^(٢)، الذي يعد من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٣٨/٤.

(٢) هو: عبد الله بن مسعود، الإمام الحبر، فقيه الأمة، سيد القراء، كاتب الوحي. أبو عبد الرحمن، ابن غافل بن حبيب بن الهنلي المكي المهاجري البصري، حليف بني زهرة. كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدرًا، وهاجر الهجرة، ومناقبه غزيرة، روى علما كثيرا.

وأمه أم عبد بنت عبد ود بن سواد من هذيل أيضا أسلمت وصحبت وأبوه مات في الجاهلية وعبد الله أسلم قديماً وقد روى ابن حبان من طريقه أنه كان ماضاً سنة في الإسلام، وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو صاحب نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخذ من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة لا ينازعه فيها أحد. بعثه عمر إلى أهل الكوفة ليعلمهم أمور دينهم. له في الصحيحين ٨٤٨ حديثاً. روي عن حذيفة أنه قال: إن أشبه الناس هدياً ودلاً وسمناً بمحمد، صلى الله عليه وسلم، عبد الله بن مسعود، من حين يخرج إلى أن يرجع لا أدري ما يصنع في بيته. مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين وهو ابن بضعة وستين سنة وقيل مات بالكوفة والأول أصح. انظر ترجمته: ابن عبد البر، الاستيعاب ٣١٦/٢، ابن الأثير، أسد الغابة ٣/٣٧١، وابن حجر، الإصابة ٢٣٣/٤، ابن سعد، الطبقات الكبرى ٣/١٥٤، الذهبي، سير أعلام النبلاء ١/٤٦٠، العيني، عمدة القاري ١٦/٢٤٦.

أفضل الصحابة رضوان الله عليهم، فعن عروة بن الزبير، عن أبيه قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود، وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: قلنا لحذيفة: أخبرنا برجل قريب السميت و الدلّ برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلزمه، قال: ما أعلم أحداً أقرب سمناً ولا هدياً ولا دلاً من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى يواريه جدار بيته من ابن أم عبد^(١).

وعن الأسود بن يزيد أنه سمع أبا موسى يقول: قد قدمت أنا وأخي من اليمن وما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لما نرى من دخوله ودخوله أمه على النبي صلى الله عليه وسلم^(٢).

وأخرج مسلم من حديث الأعمش، عن مالك بن الحارث، عن أبي الأحوص، قال: أتينا أبا موسى، فوجدت عنده عبد الله وأبا مسعود، وهم ينظرون في مصحف، فتحدثنا ساعة، ثم راح عبد الله، فقال أبو مسعود: لا والله، لا أعلم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ترك أحداً أعلم بكتاب الله من هذا القائم^(٣) وكان مع علمه عاملاً بما يعلم كما جاء عنه في برّ أمه فعن أنس بن النضر الأشجعي قال: استنقت - أي طلبت - أم ابن مسعود ماء في بعض الليالي، فجاءها بالماء فوجدها قد ذهب بها النوم فثبت بالشربة عند رأسها حتى أصبح^(٤).

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات ٣/١٥٤، الذهبي، سير أعلام النبلاء ١/٤٦٠-٤٧٠.

(٢) أسد الغابة ١/٦٧٣.

(٣) أخرجه في صحيحه ٤/١٩١١.

(٤) ابن الجوزي، بر الوالدین ص ١٤٤.

ولعل هذا الصنيع من ابن مسعود في أن يبقى ليلة كاملة عند رأس أمه، ينتظر استيقاظها يعد إجلالا لتلك الأم وتأسيا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سألت النبي صلى الله عليه وسلم: "أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة في وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله"^(١). فكانت ليلة تلك تطبيقاً لهذا الفضل العظيم في حديث رسول الله ﷺ بين الرسول ﷺ مكانة البر بالوالدين وذلك من خلال مجيء ذكر هذا البر متوسطاً بين إقامة الصلاة وبين الجهاد في سبيل الله في حديثه ﷺ، فإقامة الصلاة، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله لا تتم متيسرة للإنسان بين يوم وليلة، بل لا بد من الجهاد للنفس ومخالفتها وحملها على الصبر، والبذل، وذلك هو سبيل المؤمنين لا غيرهم، فهم الذين يقيمون الصلاة، وهم الذين يبرّون بالوالدين وهم الذين يجاهدون في سبيل الله، ويبذلون نفوسهم وأموالهم مرضاة لله تعالى، والحديث النبوي يرسم صورة النجاح والتكامل والفلاح في الحياة، فهذه التكاليف الثلاثة تتكامل بها حياة المسلم تكاملاً عجيباً، فإقامة الصلاة نجاح في ميدان صلة العبد بربه، وهذه الصلة هي أساس ومنطلق لنجاح العبد في ميادين حياته كلها، وبر الوالدين نجاح في الميدان الاجتماعي الذي يبدأ بحسن الصلة والعلاقة بأفراده، وأول ذلك حسن الصلة بالوالدين^(٢).

والجهاد هو نزوة سنام الإسلام وعزته وهو الدرع الواقي لكرامة الأمة، وهو حماية لها، وبه تصلح حياتها، ومع مكانة الجهاد في الإسلام وشأنه وأثره في حياة الأمة إلا أن الرسول ﷺ قدّم عليه برّ الوالدين، وذلك أمر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٧٤٠/٦، ومسلم في صحيحه ٨٩/١.

(٢) البيرة، معالم من الهدى القرآني ص ٦٧.

مقصود في جوابه ﷺ على سؤال ابن مسعود ؓ: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ فالترتيب ترتيب أفضلية، وهذا يدل عليه أيضاً قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحبي والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد" (١).

المطلب الرابع: بر حارثة بن النعمان رضي الله عنه :

"ممن اشتهروا ببرّ الأمّ الصحابي البصري الجليل حارثة بن النعمان" (٢)

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٢٢٨/٥، ومسلم في صحيحه ١٩٧٥/٤.
- (٢) هو: الصحابي الجليل، حارثة بن النعمان بن نفع بن زيد بن عبيد بن النجار الأنصاري الخزرجي يكنى أبا عبد الله، شهد بدرًا وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من فضلاء الصحابة.
- ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا يا معمر عن الزهري قال أخبرني عبد الله بن عامر بن ربيعة عن حارثة بن النعمان قال: مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل جالسا بالمقاعد فسلمت عليه وخزت فلما رجعت وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هل رأيت الذي كان معي" قلت: نعم قال: "فإنه جبريل وقد ردّ عليك السلام
- قال أبو عمر كان حارثة بن النعمان قد ذهب بصره فاتخذ خيطاً من مصلاه إلى باب حجرته ووضع عنده مكتلاً فيه تمر فكان إذا جاءه المسكين يسأل أخذ من ذلك المكتل ثم بطرف الخيط حتى يناوله وكان أهله يقولون له نحن يكفيك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مناولة المسكين تقي مئة سوء".
- وقال ابن سعد: وقال الواقدي: كانت لحارثة منازل قرب منازل النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فكان كلما أحدث النبي صلى الله عليه وسلم أهلاً تحول له حارثة عن منزل بعد منزل. حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد استحييت من حارثة مما يتحول لنا عن منازل. وتوفي حارثة في خلافة معاوية. انظر ترجمته في: القرطبي، ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١، الواقدي، المغازي ٣٦. "ابن الأثير، أسد الغابة ٢٢٧/١، الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٧٨/٢. ابن حجر، احمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١.

رضي الله عنه، فقد نال ببره لأُمَّه الدرجات العلا، وشهد له بذلك رسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم، عن الزهري عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة فقلت: من هذا قالوا: حارثة بن النعمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كذلكم البر كذلكم البر" (١). وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: "نِمتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِيٍّ يَقْرَأُ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كَذَاكَ الْبِرُّ، كَذَاكَ الْبِرُّ، وَكَانَ أَبَرُّ النَّاسِ بِأُمِّهِ" (٢).

وأُمّه فيما يقولون: جعدة بنت عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار (٣).

كيف كان ذلك البر أن سمع الرسول صلى الله عليه وسلم صوته في الجنة، في الجنة، - هذه شهادة من الرسول ﷺ، أي منزلة، وأي مكانة، وأي رفعة أعظم منها، ذلكم البر، ذلكم البر، وكذا أن شهدت له السيدة عائشة

(١) أخرجه البخاري، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، خلق أفعال العباد، تحقق: د. عبد الرحمن عميرة،: دار المعارف السعودية - الرياض، ٢٥٦/١، وابن وهب في الجامع ١٥٠/١، والحسين بن حرب في البر والصلة ٣٩/١، والحاكم في المستدرک ٣٢٩/٤ قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، تعليق الذهبي قي التلخيص: على شرط البخاري ومسلم المستدرک ٣٢٩/٤. والهيتمي في مجمع الزوائد ٣١٦/٩ قال الألباني: إسناده على شرط الشيخين السلسلة الصحيحة (٩١٣)

(٢) شعب الإيمان - (١٠ / ٢٦٢) (٧٤٦٧) صحيح.

(٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي ص ٨٥.

رضي الله عنها، من بين الصحابة الكرام أنه كان من أبر الناس بأمه، هنيئاً له تلك الإشادة من خير البرية عليه أفضل الصلاة والسلام. ومن زوج رسول الله ﷺ.

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "وأما حارثة بن النعمان: فإنه كان يفلّي رأس أمه ويطعمها بيده، ولم يستفهمها كلاماً قط تأمر به حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج: ما أردت أُمّي؟" (١). هذه الصورة البليغة التي يعجز اللسان عن التعبير عما فيها من تكريم، وإجلال، وخفض جناح، فما أبركها من معاملة، وما أجله من تقدير، وما أعظمه من إحسان هذا البر الذي يشهده الجليل، ويثيبه عليه الثواب الجزيل، فكان طريقه إلى جنة عرضها السموات والأرض، بأن شهد له الحبيب ﷺ وهذا هو التطبيق الحي لهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام، الذي سرى في نفوس الصحابة الكرام.

المطلب الخامس: برّ عبد الله بن الزبير رضي الله عنه؛

عن عروة قال: "عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (٢) أحبّ البشر إلى

(١) ابن الجوزي، بر الوالدين ص / ١٤٤.

(٢) هو: الصحابي الجليل، عبد الله بن الزبير بن العوام يكنى بأبي بكر، هو أول مولود ولد بالإسلام بالمدينة، أتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم تمرّة، فلاكها ثم أدخلها في فيه فأول ما دخل بطنه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولدسنة اثنتين من الهجرة وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وله ثمان سنين وأربعة أشهر، خرجت أسماء أمه حين هاجرت حبلى ففقت بعبد الله في قباء، قالت أسماء: ثم جاء بعد سبع سنين ليبيع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمره بذلك الزبير، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه مقبلاً ثم بايعه. وشهد وقعة اليرموك والقسطنطينية والمغرب وله مواقف مشهورة وكان فارس قریش في زمانه. بويح له بالخلافة سنة أربع وستين، وحكم على الحجاز واليمن ومصر وخراسان والعراق وأكثر السند.

انظر ترجمته: عند ابن عبد البر الاستيعاب ١/ ٢٧٣-٢٧٥، وابن حجر، الإصابة ٨٩/ ٤- ٩٣، ولطبري، الرياض النضرة ١/ ٣١١-٣١٤.

عائشة بعد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد أبي بكر، وكان أبرّ الناس بها^(١)، وعن مسلم المكيّ قال: ركع ابن الزبير يوماً ركعة فقرأت البقرة و آل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه، وعن ابن أبي مليكة قال: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام^(٢).

وعن عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه قال ما تأبى فما سألت الله حولا إلا أن يغفر له سنة كاملة، سنة كاملة ما يدعوا بأيّ دعاء ولا يطلب أي طلب إلا لأبيه سنة كاملة أي برّ هذا إنه برّ الوالدين من أشرف الأعمال وأجلّها عند الخالق جلّ وعلا^(٣). وكذا كان عروة بن الزبير يقول في سجوده: اللهم اغفر للزبير بن العوام و أسماء بنت أبي بكر^(٤).

ومن بره لأمّه طاعته لها، فقد روي عنه أن عبد الملك بن مروان لما طالبت حربه مع ابن الزبير في شأن الخلافة أرسل إلى الحجاج بن يوسف الثقفي بأن يعرض على ابن الزبير الأمان، ويعرض عليه الولاية دون الخلافة ففعل الحجاج فرفض ابن الزبير، فعاود الحجاج قتاله، وأغرى أصحابه بالأمان إن لم يقاتلوا مع ابن الزبير فنفرق عن ابن الزبير أصحابه فدخل ابن الزبير على أمّه في اليوم الذي قتل فيه يستشيرها برّاً بها وصدوراً عن أمرها، فقال: يا أمه، خذلني الناس حتى أهلي وولدي ولم يبق إلا اليسير

(١) أخرجه البخاري، في صحيحه ١٢٩١/٣.

(٢) المحب الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، الوراق، ١/ ٣١٣.

(٣) تاريخ دمشق ٢٨/٢٤٣.

(٤) ذكره عبد الرزاق، المصنف ٤٤٦/٢، و الطرطوشي في بر الوالدين ص ٥٠،

والبيهقي، شعب الإيمان ٦/٢٠١.

ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟

قالت: إن كنت على الحق وتدعو إليه فامض عليه فقد قتل عليه أصحابك، يا بني مت كريماً، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلاعبوا بك، وإن قلت إنني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي ليس هذا فعل الأحرار، ولا فعل من فيه خير، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما نفع به يا ابن الزبير، والله لضربة بالسيف فيها عزّ أحبّ إلى من ضربة بسوط في ذلّ. قال لها: هذا والله رأيي الذي قمت به داعياً إلى الله، والله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله تعالى أن تهتك محارمه، ولكني أحببت أن أطلع رأيك فزدنتي قوة وبصيرة مع قوتي وبصيرتي، والله ما تعمدت إتيان منكراً ولا عمل بفاحشة ولم أجر في حكم، ولم أغدر في أمان، ولم يبلغني عن عمالي ظلم فرضيت به، بل أنكرت ذلك، ولم يكن شيء عندي أثر من رضا ربي سبحانه وتعالى، اللهم إنني لا أقول ذلك تركية لنفسي ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني.

قالت له: والله إنني لأرجو أن يكون عزائي فيك حسناً بعد أن تقدمتني، فإنّ في نفسي منك حوجاء حتى أنظر إلى ما يصير أمرك. ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة وبرّه بأمه، اللهم إنني قد سلمت فيه لأمرك ورضيت منك بقضائك، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين.

فودعها فوجدت مسّ الدرع تحت ثوبه.

فقالت: ما هذا فعل من يريد ما تريد، فقال: إنما لبسته لأشدّ منك وقال

لها فيما خاطبه به :إني ما أخاف القتل وإنما أخاف المثلة فقالت: يا بني إن الشاة لا تبالي بالسلخ بعد الموت.

قالت أسماء رضي الله عنها: كان برًّا بالوالدين صوامًا قوامًا.

قال لها: كيف رأيت ما صنعت بابنك؟ قالت: "رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك"^(١)، ولا ضير أن أكرمه الله على يدك، فقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل^(٢).

فما أعظم ذلك البر، الذي جسده عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، في أصعب المواقف، وأشدّها على النفس، حتى أن وفاءه اتسع حتى شمل السيدة عائشة رضي الله عنها - خالته - بل كان من أبر الناس بها فهنيئًا له تلك المنزلة السامية والدرجة الرفيعة بذلك البر.

وتتوالى صور البر والإحسان بين الصحابة الكرام إزاء توصية الرسول صلى الله عليه وسلم المتكررة فوجوه البر والخير والمعروف التي أخبر بها ﷺ وحض عليها كثيرة ومتعددة، وساحاتها واسعة ممتدة رحبية مبسطة في كل جوانب الإحسان، وممن عُرفوا بأنهم ضربوا أروع الصور في برّ الأمّ من تلك الصور المشرقة:

ما روي عن عمر بالخطاب رضي الله عنه، قال ابن الجوزي: رأى عمر - رضي الله عنه - رجلاً يحمل أمّه، وقد جعل لها مثل الحوية على ظهره، يطوف بها حول البيت وهو يقول: "أحمل أُمّي وهي الحماله... ترضعني الدرة و العلالة"

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم، في صحيحه ١٩٧٧/٤.

(٢) انظر: الطبري، الرياض النضرة ٣١٣/١.

فقال عمر: "فلأن أكون أدركت أمي، فوليت منها مثل ما وليت أحب إلي من حمر النعم"^(١).

وفي رواية عن زرعة بن إبراهيم، أن رجلاً، أتى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي أما بلغها من الكبر أنها لا تقضي حاجة إلا وظهري مطية، لها فأوطيها وأصرف عنها وجهي، فهل أدبت حقها؟ قال: لا. قال: يا أمير المؤمنين، أليس بعد ما حملتها على ظهري، وحسبت عليها نفسي؟ قال: «لا، لأنها كانت تصنع ذلك بك وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنع ذلك بها وأنت تتمنى فراقها»^(٢).

قال ابن الجوزي: وليعلم البار بالوالدين أنه مهما بالغ في برهما لم يف بشكرهما^(٣).

وكما كان عمر بن الخطاب، سار ابنه على خطا الرسول صلى الله عليه وسلم، وكما نعلم أنه كان أكثر الصحابة تتبعا لهدي المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومما يُروى عنه في محبته لبرّ والدته أنه كان جالساً بجوار الكعبة فنظر رجل من أهل اليمن يطوف بأمه يحملها بين كتفيه، حتى إذا قضى طوافه بالبيت وضعها بالأرض فدعاه ابن عمر رضي الله عنهما فقال له: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي والدتي. فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لو ددت أنني أدركت أمي فطفت بها كما طفت بأمك، وليس لي من الدنيا إلا هذه النعلان^(٤).

(١) ابن الجوزي، بر الوالدين ص ١٣٠.

(٢) أخرجه ابن وهب في جامعه ٩٢/١.

(٣) بر الوالدين ص ١٣٠.

(٤) أخرجه ابن وهب، في جامعه ٩٣/١.

وما مات ابن عمر رضي الله عنهما حتى أعتق ألف إنسان أو يزيد، وكان كثير الإنفاق جواداً، يياسط الناس ويبرهم ويكرم كل من يقصده، وما تمنى عمر هذا إلا دلالة على عظم برّ الأم في نفوس الصحابة.

وكذا الحارث بن عبد الله الثقفي حيث يذكر أنه كانت له صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتهر ببرّه لأُمّه، وكانت تدعى هنيّدة أو كنة. وكانت كنة امرأة من غامد يمانية قد ولدت في قبائل العرب وكانت أمة فأعتق الحارث كل مملوك من بني كنة فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته أيسرك أن أهل بيت عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة مكان كنة؟ فقال يا أمير المؤمنين لوددت أن ذلك كذلك. فقال عمر ليت أُمي كنة وأن الله يرزقني من برها ما رزقك. وكان أبر الناس بأُمه ما كانت تأكل طعاماً إلا من يده ولا يغسل رأسها إلا هو ولا يسرح رأسها إلا هو^(١).

فقد تمثل هدي النبي صلى الله عليه وسلم وجسد الحارث رضي الله عنه هذا البر بالعتق و فاعتق كلّ مملوك من بني كنة إكراماً لأُمّه، وحباً لها وتقديراً لمكانته واحفاوة بها، أكرم كل مملوك ينسب إلى كنة، محققاً أعظم منازل البر والصلة، ورأس الفضائل والأعمال الصالحة، مستتيراً بتعاليم الدين الحنيف، وبتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإنّ المتأمل في زمن النبوة والصحابة الكرام من بعده صلى الله عليه وسلم، وماسطرته كتب السير، بل تاريخنا الإسلامي المجيد بأسره؛ ليجد صفحات مضيئة ومواقف رائدة من حفاوة الرسول الكريم ﷺ بالأم، إجلالاً لها واحتراماً لذاتها، وفي سير وقصص الصحابة الميامين في صحبة الأم

(١) ذكرها الواقدي، في المغازي ٩٠٨/١.

ما يصعب تجليتها وما سبق إلا اقتباس، ينير الدرب أمام السائرين على الطريق في حسن الصحبة والبر والوفاء وحسن التعامل مع الوالدين^(١).

• الخاتمة:

الحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.
أما بعد،،،

كانت تلك لمحات سريعة تناولت فيها مكانة الأم وصورًا مشرقة ومضيئة من اتباع الصحابة الكرام لهدي النبي صلى الله عليه وسلم في برّ الأمهات، وتقديمها أحاديث عظيمة ومسائل جلية في بابها، غرست حبّ البر في قلوبهم، فقدموا برّها على الهجرة وعلى الجهاد وعلى الصحبة وعلى كبير النوافل وصغيرها؛ فقالوا بذلك الشرف العظيم والأجر الكبير وفازوا برضا المنان ونالوا أعالي الجنان. ولعمري إنه النموذج الأرقى للتعامل مع تلك الأم الحنون والقلب الرؤم، حيث تفانوا في تكريمها يقدمون لها الغالي والنفيس فداءً لذلك الهدي، وقد كان للموضوع استطراد في بعض المواطن ظهر فيه - على سرعة التناول - جمال الإسلام؛ وكمال شريعته، ولا عجب فالإسلام دين الله الخالق، ودين الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة تأخذ بالعبد لترفع شأنه في الدنيا والآخرة.

وفي ختام هذه الصورة المشرقة المضيئة من برّ الصحابة بأهماتهم نذكر بعض التوصيات:

(١) بتصرف: البيرة، من معلم الهدي القرآني ص ١٠١.

١- حثّ العلماء وخطباء المساجد بتناول تلك المكانة العالية الرفيعة للأم بشيءٍ من التفصيل و المتابعة، وذكر تلك القصص التي تبث الحماس في نفوس المستمعين على برّ الوالدين، والتذكير المستمر إبتاعاً لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢- وضع منهج دراسي لكلا المرحلتين الثانوية والجامعية -خاص -توضّح فيه مكانة المرأة في الإسلام، وخاصة بعد هذه الحملات المناهضة للإسلام وشرعه تحت ستار حقوق المرأة، فيتمّ توضيح المخططات التخريبية الشرسة المعادية للإسلام وللمرأة المسلمة على وجه الخصوص.

٣- نشر تلك المكانة العالية لهدى الإسلام في شأن المرأة وتكريمها من خلال مبادرات إسلامية لعقد مؤتمرات عالمية تُظهر تلك المكانة من منظور شرعي، وينبغي أن تتبنى هذه المؤتمرات جهات إسلامية مُعتبرة، قوية في مادتها العلمية وفي طرحها.

٤- تفعيل ذلك التكريم للأم على مستوى الأسرة والدولة بل والأمة الإسلامية، وذلك بحثهم عملياً و تطبيقاً عن طريق الندوات والملتقيات العلمية والأدبية، حتى ولو استدعى الأمر سن القوانين والضوابط الصارمة التي تحفظ لتلك الأم مكانتها ومنزلتها.

و آخر دعونا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين الهادي إلي الطريق المستقيم، والأمر الرشيد.

• المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن الأثير، علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض وعلي أحمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.
- ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي ط١، دار الجيل - بيروت ١٤١٢هـ.
- ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي، تاريخ دمشق، ملنقى أهل الحديث، الموسوعة الشاملة.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، مكتبة الرشد - الرياض ١٤٠٩.

- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري، الطبقات الكبرى، تحقيق، إحسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ م.
- ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الوراق .
- ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى، أبو عيسى، الجامع الصحيح، موقع وزارة الأوقاف المصرية.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، والأحاديث منبلة بأحكام الألباني عليها.
- أبو زيد، محمد عبد الحميد، مكانة المرأة في الإسلام، دار النهضة العربية، ١٩٧٩.
- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح وضعيف الجامع الصغير، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.
- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح وضعيف سنن ابن ماجه: برنامج

منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، ط١، دار الصديق. ١٤٢١هـ.

- الألباني، محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض.

- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح وضعيف الجامع الصغير، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية، من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، ط٥، مكتبة المعارف - الرياض

- الألباني، وهبي سليمان غاوجي، المرأة المسلمة، ط١، دار القلم، دمشق، ١٩٧٥.

- البخاري، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، خلق أفعال العباد، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية - الرياض.

- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة بيروت ١٤٠٧.

- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق وتخرير:

محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش،
ط ٤ دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر، سنن البيهقي
الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة،
١٤١٤ - ١٩٩٤.

- والبيهقي، أبو بكر أحمد من الحسين، شعب الإيمان، تحقيق: محمد بسيوني
زغلول، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠ هـ

- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، الجامع الصحيح سنن
الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي
- بيروت، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

- التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب، مشكاة المصابيح، تحقيق:
تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط ٣، المكتب الإسلامي - بيروت،
١٤٠٥ هـ.

- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير
القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

- الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم، المستدرک على الصحيحين،
تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١
- ١٩٩٠.

- الجيلاني، فضل الله الصمد توضيح الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل
البخاري ط ١٤٠٦ هـ.

- الجرجاني، حمزة بن يوسف، تاريخ جرجان، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، ط٣، عالم الكتب- بيروت، ١٤٠١هـ.
- الجصاص، أحمد بن علي الرازي أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي من محمد الحنبلي، بر الوالدين، تحقيق: خالد طرطوسي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٦هـ.
- الجوزي، عبد الرحمن بن علي الحنبلي، صفوة الصفوة، الوراق.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب أبوبكر، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، ١٤٠٣هـ.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد، سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع، الأحاديث مزيلة بأحكام حسين سليم أسد عليها العلمي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن فخر الدين، مفاتيح الغيب، موقع التفاسير.
- رضا، محمد رشيد، حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- الزهراني، موسى بن محمد بن هجاد، تهيمش الوالدين في حياتنا.

- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.
- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الدر المنثور، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣.
- السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الحباثك في أخبار الملاحك، الوراق.
- آل الشيخ، حسين بن عبد العزيز، المبادئ العامة لمكانة المرأة في الإسلام، المدينة المنورة ١٤٢٧.
- الشحود، علي بن نايف، الخلاصة في أحكام برّ الوالدين، ط ١، بهانج - دار المعمور، ماليزيا، ١٤٣٠ هـ.
- الشيباني، أحمد بن حنبل أبو عبد الله، مسند الإمام أحمد،، مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة
- صالح بن حميد، عبد الرحمن بن ملوح، مجموعة من العلماء، موسوعة نضرة النعيم، في أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ط ٣، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٢٥ هـ.
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط ١، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، ١٤٠٤ - ١٩٨٣.
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، مسند الشاميين، تحقيق: حمدي السلفي، ط ١، مؤسسة الرسالة -، بيروت ١٤٠٥ هـ.

- الطبراني، سليمان بن أحمد أبو القاسم، الدعاء، تحقيق: مصطفى عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣ هـ.
- الطبري، محمد بن جرير الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الرياض النضرة في مناقب العشرة، الوراق.
- الطرطوشي، محمد بن أبي بكر الفهري، بر الوالدين، تحقيق: خالد طرطوسي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٦ هـ.
- العبد الكريم، فؤاد بن عبد الكريم، قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية، جامعة الإمام محمد بن سعود، المشكاة.
- عبد الله بن أحمد، فضائل عثمان بن عفان، موقع جامع الحديث، الموسوعة.
- العقاد، عباس محمود، المرأة في القرآن، دار الهلال.
- الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت.
- القرطبي، ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢ هـ.
- القحطاني، علي بن وهف، بر الوالدين مفهوم، وفضائل، وآداب، وأحكام في ضوء الكتاب والسنة.
- لمحمد رواس، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ط٢، المشكاة.

- محمد صفوت نور الدين، غاية الشوق لفضل بر الوالدين والعق، مشكاة الإسلام، الألوكة.
- المزي، جمال الدين أبي الحجاج يوسف، تهذيب الكمال، الموسوعة الشاملة.
- المروزي، الحسين بن الحسن بن حرب، البر والصلة، تحقيق: د. محمد سعيد بخاري، ط ١، دار الوطن - الرياض، ١٤١٩.
- الماوردي، العلامة أبو الحسن، الحاوي الكبير، دار الفكر - بيروت.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، النكت والعيون، الموسوعة الشاملة.
- المقرئ، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، ط ١٩٨٧.
- المحاربي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام بن عطية، المحرر الوجيز، موقع التفاسير، الموسوعة الشاملة.
- المناوي، الإمام الحافظ زين الدين عبد الرعوف، التيسير بشرح الجامع الصغير، ط ٣، مكتبة الإمام الشافعي - الرياض - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- المناوي، عبد الرعوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط ١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٦ هـ.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، ط٥، دار المعرفة ببيروت، ١٤٢٠ هـ.
- الهاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة، ط١، دار البشائر الإسلامية، ١٤١٥ هـ.
- الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بتحرير العراقي وابن حجر، دار الفكر، بيروت ١٤١٢ هـ.

